الحَبْل السِرّي

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

Elnokhbapublish.com

1441 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: 7232 / 2020

الترقيم الدولي: 9 – 478 – 838 – 977 – 978

الكتاب: الحَبْل السِرّي

المؤلف: سمية الناصر

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

النخبة للنشر والطباعة والتوزيع

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

الحَبْل السِرّي

رواية

سمية الناصر

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2020

إهداء

له هو فقط

أحببت رجلاً يسكن ذاكرتي، يجري كالدم بأوردتي.

أحببت رجلاً يبعثني امرأة أخرى، امرأة أقوى من ضعفي.

أحببت رجلاً يلملم أشلائي، يبعثني أنثى كاملة، رجل تسحره أفكاري، رجل لا ينظر لقشوري، رجل يحبني لذاتي .

أحببت رجلاً يزرعني في أعماق الحب، يجعلني انضر باقة ورد، يطلقني عطرًا فواحًا .

أحببت رجلاً لا يجلس طول الوقت يعدد أخطائي، يبحث عن ضعف أفكاري .

أحببت رجلاً يضجره صمتي، رجل يبعث في نفسي كل مواسم خصبي

أحببت رجلاً له وحده كتبت.

سمية الناصر

الفصل الأول

صاحبة المقعد الأمامي

مدينة السلام احتضنته، تركت إنطباعها عليه، يسكن العاصمة مع أسرة كثيرة عدداً كبيرة حبًا.

الأب تزوج من ثلاثة نساء...

الأولى، أنجبت له ولداً واحداً هو «عبد الله». تركته طفلاً رضيعاً لم ينهل من حنانها شيئًا.

أما الثانية، فرغم أنها أنجبت منه ثلاثة أبناء لكنها أبدًا لم تكن تفرق بينه وبين أبنائها في المعاملة. كانت له نِعم الأم، ولم تشعره لحظة واحدة باليتم أبدًا.

أما الزوجة الثالثة، فقد كانت طفلة بريئة تركض نحو «أبو عبدالله» عند حضوره لزيارتهم، وتستقبله بالحب لتحصل منه على بعض قطع الحلوى التي كان يحملها في جيبه، كانت تناديه «عمو».

لكن بمرور الزمن الأدوار تغيرت الأدوار..

كيف؟

لا أحد يعلم، فقد أصبحت الطفلة زوجته. ذلك الرجل المتزوج من إثنتين، يكبرها بثلاثين عامًا على الأقل، تزوجته وصارت هى الزوجة المدللة، أنجبت له ست بنات وولدين.

عاشت الزوجتان في منزل واحد. صحيح أنه منزل واحد، لكن كان كل ركن فيه يحمل حباً جماً يكفى ليتوزع على الجميع بل ويفيض.

لم يكن أبداً هناك فرق بين ابن هذه أو ابن تلك، كان «أبو عبدالله» مثالاً للهيبة العربية والوقار. تلك السمة التي تميز رب الأسرة فى بيوت ذلك الزمان.

شبَّ محمد متأثرًا بوالده وبفنان كان يطلق عليه «دون جوان» الشاشة المصرية وساحر النساء، طويل كنخلة عراقية شامخة، أسمر الوجه بلون تربة أرض الرافدين، جميل الشكل والنفس أنيق المظهر.

كان ذو شخصية قوية، معتمدًا على نفسه محبًا للعمل عاشقًا للتميز في كل شيء، ثم بدأت مرحلة بناء الأسرة والتفكير الجدي في الزواج، فكانت البداية ترشيح فتاة له ليتزوجها كما هي العادات والتقاليد في بلده.

وقع الإختيار على إحدى قريبات زوجة أبيه الأولى، كانت تسكن الريف من عائلة ريفية، تم القبول وبدأ مشوار الحياة، لم يرها إلا

في ليلة دخوله عليها، لم يجدها كما يتمنى، كانت فتاة ذات شكل مقبول، نحيفة الجسم، ثقافتها بسيطة جدًا لا تكاد تعرف شيئًا إلا أمور المنزل.

أما هو فقد كان الرجل الوسيم، ابن المدينة المتعلم، حاول محمد التكيف مع حياته الجديدة فكان يتعامل مع زوجته بما يرضي الله، لكن دون حب فهو لم يشعر بحبها فى قلبه منذ أن تزوجها لكنه لم يكن يكرهها فقط هى المودة والرحمة التى كانت بينهما.

لم يقصِّر معها مادياً أبدًا وأن كان كثيرًا ما كان يقصِّر معها معنويًا إلى حد ما، عاش حياته أغلب الوقت خارج البيت يأتي إلى زوجته آخر الليل ليمارس معها دور الزوج وهي على بساطتها وطيبتها لم تعترض بل أحبته حباً يفوق الوصف، فهى بنت الريف البسيطة التي لم تكن أبدًا تحلم أن تتزوج رجل بهذه الشخصية وتنتقل من الريف إلى المدينة. فكم كانت تدعو دومًا أمها الله تعالى أن يحقق لها ذلك، لكل هذا تحملت من أجله كل شيء كانت تحزن لو ظل قميصه ناقصًا ولو زرًا واحدًا لفترة تتجاوز الساعة بل كانت دومًا تلوم نفسها بشدة لو أنه طلب شيئًا قبل أن تلاحظه هي.

هكذا كانت تعامله، تسهر على راحته، بنت الريف لم تكن طبيبة أو متخرجة من الجامعة لكنها كانت تعرف كيف تصنع أسرة سعيدة

متماسكة وتحافظ عليها، كما كانت تراعى والدته وأخيه حتى بعد أن انتقلا للعيش في بيت خاص. محمد لم يكن طاغية لكنه لم يكن يطلب الشيء مرتين.

كانا مقتنعين أن الرجل يعيش من أجل عمله لتوفير المال والحماية لأسرته بينما المرأة تعيش من أجل بيتها وأن أية محاولة لتغيير هذا الوضع كفيلة بخراب البيت.

وفي ليلة تبسَّم فيها المساء جميلًا وارتفع القمر وتلألأت النجوم لترسل شعاعًا من خيوط فضية في غرفة محمد وسعاد، همس النسيم العليل بين الأوراق.

كانت تحدثه عن أمنية كانت تتمناها وهى أن يمتلئ حجرها بطفل، مالت نحوه كسنبلة ممتلئة كأنها تحتفل بقدوم موسم حصادها لتمنح محمد ما يزيد من عزوته.

اقترب منها وشمر عن سواعده، توسطت حفلة وعاودت نظرة الشوق إليه لإلتماس نصيب من الراحة بقربه. كانت سعاد تشعر بسلام داخلي بقرب محمد، فبوجوده تشعر أنها في حالة إنسجام وهدوء وسلام بين روحها وجسدها.

ورغم طول فترة بقائه خارج المنزل إلا أنها كانت تشعر بذلك الأمان، كانت مؤمنة بأن هناك رباً يسمعها وهي تناجيه أن تعيش

بسلام بقرب رجل عرفت معه السلام من أول لحظة دخل فيها عليها.

في لحظة صفاء بينهما أن يكون هناك ما يجعل الحياة تمتد بينهما وتمضى حياتهما على جناحي أحلامهما، كانت أمنيتها أن يكون هناك من يمد في حياتهما بعد فراقهما للأرض واللحاق بالأحباب في السماء.

وهكذا واقعها على هذه الأمنية فصار في أحشاء سعاد جنينًا من سيدها وحبيبها.

كانت سعاد تتحسس تكونه بحديثها له عن أحلامها، وتخيلاتها، حبها لوالده وعشقها له ولقطعة منه في أحشائها وظلت تحادث جنينها بكلام عطوف جعل حبل الوصل يقوى أكثر من كونه بين أم وجنينها لتقول بعد أن عرفت أنها بنت:

أنتظرك لتكوني صديقتي، لتكوني الفراشة التي تنشر الفرح والبهجة في البيت.

وبقيت سعاد هكذا حتى تطور التكوين وحانت لحظة الميلاد، ميلاد أنثى...

- محمد: سأسميها إبتسام.
- سعاد: لماذا إبتسام؟

- محمد: أنظري لجمال الوجه والبسمة على محياها، إنها بسمة روحي وقلبي
- سعاد: لك ما تريد فأنت بسمة قلبي وروحي.

جاءت إبتسام بجمال وجهها البسام أخذت من البدر دوران الوجه وبياضه.

جاءت إبتسام وغيرت الحياة فما ان رآها محمد وحملها، حتى سرى في روحه تيار شعاع الحب.

ابتسم لسعاد وشكرها على هديتها، احتضن قطعة قلبه وهو ينظر في وجهها ويحمد الله على نعمته.

اخذت تلك الفراشة تكبر وهي تقفز وتلعب في البيت، جاءت كأنها قطرة من غيث أجاد الله بها على محمد وسعاد.

كانت سعاد تخفي زفير الأمنيات بأن تكون ابنتها السبيل لتغير تلك الحياة.

وبعد عام جاء (سعد) الأخ الأكبر لإبتسام. ثم جاء (منتظر) الأخ الأصغر، وبعده جاءت أنسام ووئام.

كبرت الأسرة بثلاثة اولاد وثلاث بنات هم كل ما كان من ثمرة زواج بين ابن المدينة وبنت الريف التي أحبت بصدق فكانت الحامية الراعية المضحية في بيت اعتبرته مملكتها في مدينة شعبية.

بيت يضم على صغره وغرفه التي تعد على الأصابع بالحب كل الأهل والإخوة والأولاد والأحباب.

كانت سعاد امرأة تحمل كل صفات الجود والكرم، أرضعت أولادها فى لبنها ما تربت عليه من أخلاق.

بقيت البنت الكبرى إبتسام عين القلادة التي فتحت الخير على الأسرة بمقدمها فأحبها الأب، وكانت طفلته الصغيرة المدللة، الأميرة، هي التي يرى بهاء الدنيا بعينيها، صاحبة أجمل ضفيرة وكانت بمبسمها من أجمل ما خلق الله وأبدع في خلقه. ورغم أنها أنثى في مجتمع عربي معروف عنه النظرة القاصرة للمرأة إلا أنه كان يحاورها بقوله:

– ها قد كبرتِ أمامي، ها قد بدأت شخصيتك في التكوين، انظر إليكِ فأرى نفسي وتكبر أحلامي فيكِ وتتحقق أكثر وأكثر. ابنتي كلما كبرتِ كبرت معك أحلامي وطموحاتي، ابنتي كل ورود الأرض وأزهارها بكل ألوانها وعطرها الفواح لو جمعتها لك لكنت الأجمل.

كان محمد يعاملها دون أخوتها وكأنها اميرة على العرش تربعت.

هذا لأنها عرفت كيف تكسب حبه بتوددها ودلالها أمامه وقد اكتسبت منه قوة الشخصية، كانت تسد فراغ غيابه لو حضر ضيف

للمنزل رغم قلة خبرتها وصغر سنها، كانت تكسب حب واحترام كل من يتعامل معها، فأصبحت صاحبة المقعد الأمامي دائمًا.

وحين يُسأل لِمَ لا تجلس أم سعد أو سعد وهو الإبن الأكبر؟

يرد بكل فخر وحب إنه مقعد إبتسام فهي صاحبة المقعد الأمامي وستبقى.

كبرت الأميرة المدللة وكثيراً ما كان محمد يناديها لتكون دومًا بالقرب منه.

كانت إبتسام جميلة تتميز بذكاء جعلها تحتل قلب والدها وقلب كل من يراها أو يعرفها.

***

الفصل الثاني

العودة إلى القرية

تغيرت ظروف الأسرة، فقرر أبو سعد ودون مشاورة زوجته وأولاده الإنتقال إلى السكن في قرية بضواحي بغداد بعد أن اشترى قطعة أرض زراعية بالإتفاق مع أخيه الأكبر «أبو صلاح» الذى إقتنع برأيه فقد كان يحترمه جداً ويحترم فكره ورجاحة عقله وكلامه.

انتقلت الأسرة على مضض لتبدأ مرحلة تحول وشقاء في حياة عائلة أبو سعد، حيث كان البلاد في حالة حرب إستمرت لثمانِ سنوات فتم إستدعاء حتى من كان قد دفع البَدَل لعدم الإلتحاق بالجيش.

وقد كان محمد من ضمن من تم استدعاؤهم للإلتحاق بالخدمة الإلزامية رغم أنه لم يلتحق فى حياته بالعسكرية، وأصبحت أم سعد هي الأب والأم للأسرة في غياب الزوج لعدة أشهر وهو في جبهات القتال.

وعلى الرغم من تغير ظروف الأسرة إلا أن إبتسام وإخوتها أكملوا دراستهم فتفوقت ابتسام في دراستها واستمرت على هذا التفوق حتى حصلت على المرتبة الأولى على محافظتها.

لكن... لحظات السعادة لا تدوم. فهي دومًا قصيرة فقد حدث ما لم يكن في الحسبان. تلك الفتاة التى في عمر الزهور ما زالت تمر بمرحلة المراهقة، لكن لم تعشها.

شبَّت الطفلة وأصبح يأتي إليها الخُطَّاب كل يوم، فجمال الشكل مشكلة في المجتمعات الشرقية، إلا أن الأب كان يرفض.

وذات ليلة ظلماء دق جرس الخطر لتتبدل حياة إبتسام، مرض عمها أبو صلاح مرضاً عضالاً ما منه شفاء فاستدعى أخيه أبو سعد ليحدثه في أمر ما...

- أبو صلاح: أشعر أن هذه آخر أيامي وأريد أن أوصيك وصية مني يا أخي .
- أبو سعد: سلامتك يا أخي، العمر الطويل لك، لا تيأس إنها أزمة وتمر بإذن الله.
- أبو صلاح: طلبتك لأمر أخشى أن أموت ولا يتحقق.
- أبو سعد: رقبتي.. تحت أمرك، قل يا أخى ماذا تريد وسيكون لك إن شاء الله.
- أبو صلاح: وصيتي أن تزوج إبتسام لصلاح.

صعق أبو سعد بسماع هذا الكلام، ورد قائلا:

- لكن صلاح متزوج وعنده أولاد وهو أكبر من البنت بعشر سنوات تقريبًا!

- أبو صلاح: أعلم ذلك لكنه يريدها وهي إبنة عمه وأنت تعرف عاداتنا وتقاليدنا تقول بنت العم لإبن العم ان أرادها، وهذه وصيتي يا أخي.

سكت أبو سعد دون إعتراض مطأطئًا رأسه بين قدميه وشعر بالإنكسار، فلا يمكنه الإعتراض من باب الأحترام أولًا ومن خوفه على أخيه ثانياً وهو على فراش الموت لا يريد أن يحزنه.

مرت ثلاثة سنوات مسرعة بعد وفاة أبو صلاح. وفي يوم ليس ككل الأيام وفي لحظة إستلام إبتسام نتيجة البكالوريا الفرع العلمي، اليوم الذى رسمت فيه مستقبلها أن تكون الدكتورة إبتسام.

جاءت أم صلاح مع إبنها ليحط الليل رحاله وبدت أوتاد خيمته السوداء في قلب إبتسام ليتصاعد بين أضلعها قرع طبول، وارتشاف كأس الخوف وتتهجى ما خلفت هذه الزيارة في هذا اليوم. انقبض قلب إبتسام وسألت أمها:

- لماذا جاؤوا؟

- الأم: لا أعلم يا ابنتي لكن لا تهتمي إنهم ضيوف وسيذهبون.

- إبتسام: أمي أشعر وكأنهم جاؤوا ليسرقوا حلمي، أين أخبئه واختبىء؟

- الأم: ما هذا الكلام يابنيتى؟ تتحدثين كأنها أول مرة يأتون فيها إلينا؟

- إبتسام: لا يا أمي، أشعرهذه المرة أن الزيارة مختلفة، يحدثني قلبي بذلك أنهم جاؤوا من أجل وصية عمي.

- الأم: لا تفكري كثيرًا يابنتى لقد كان مجرد كلام لا أحد يتذكره، فقد مرت عليه ثلاث سنوات، فلماذا الأن؟

اطمأنت إبتسام قليلاً حين سمعت كلام والدتها. ورغم ذلك فقلبها ما زال يدق ويرتجف كقطار مر سريعًا على قضبان حديدية مفككة.

أخذت أم سعد تعد العشاء وهم ينتظرون أبو سعد، وفي هذه الأثناء كان الجو مشحونًا بالترقب من قبل إبتسام وأمها حتى وصل أبو سعد، كان سعيداً بزيارة زوجة أخيه المتوفى وإبنها، فهو يحب صلاح لأنه شاب مهذب، محترم، ويحب أعمامه كثيراً ويصلهم ويتواصل معهم.

الشاب كما يقول المثل (تعبان على نفسه) فقد أكمل دراسته خارج العراق وتوظف بوظيفة محترمة، يملك بيتًا وسيارة ومبلغًا لا بأس به من المال في البنك.

جلس الجميع يتحاورون في أمور الحياة وكيف هي الظروف في العاصمة و.. و.. و.. حتى جاء العشاء وطلبت أم سعد من الضيوف أن يتوجهوا للمائدة، فقد أعدت ما لذ وطاب من طعام لضيوفها.

استمتع الجميع بالأكل إلا إبتسام فما زال قلبها يحدثها بأن حياتها ستتغير بعد هذه الزيارة.

فلا أحد يعلم ما أصابها ولا أحد يعلم كيف ستكون معركتها مع الحياة.

فما الذي زعزع أمنها وقتل عفويتها. كانت تشعر وكأن شيئًا عظيمًا سوف يتحطم بداخلها، كانت تشعر بأن هناك ما سيسرق من أحلامها وطموحاتها.

لم تحاول الاقتراب ولا حتى الكلام، فهي تدرك أن الحياة ليست شكلاً هندسياً ترسمه بقلم ومسطرة ومساحات وزوايا ومعادلات ضرب وطرح أوتقسيم عقلها يقول لها:

إن الحياة أعمق من هذا بكثير...

لكن هناك من سيحجم حياتها ويضيق عليها هذا الكون الفسيح من حولها ولن يكون هناك طموحات في أفق أحلامها سيضيع منها كل شيء بل ويتحطم على جدار الواقع الجديد.

ومع هذا الترقب كانت عقارب الساعة كأنها تلسعها وكأنها تمارس معها أبشع أنواع التعذيب لتقتلها ببطء ودون رحمة فهي مع كل لحظة تنتظر أمراً جمًا تراه يقترب من ظن مر إلى واقع مرير.

بعد العشاء أحضرت إبتسام الشاي المهيل. وبإبتسامة عريضة من أم صلاح استقبلتها بها قائلة:

- أهلا بعروستنا الجميلة.

صعقت إبتسام لسماع هذا الكلام وشحب لونها. لكن الجميع إبتسم بلا مبالاة وكأنهم اتفقوا على هذا الكلام بلا رجعة.

- إبتسام: ما هذا الكلام يا عمتي؟

- أم صلاح: نعم يا حبيبتي نحن هنا اليوم لننفذ وصية عمك رحمه الله الذي كان يحبك، فأنت وصيته.

- إبتسام: لكني لا أريد الزواج الأن، أريد إكمال دراستي فقد حصلت على معدل يؤهلني أن أحقق حلمي وأصبح دكتورة، حصلت على المرتبة الأولى على محافظتي كما تعرفين يا عمتي.

- أم صلاح: وما المانع من قال لكِ لا تكملي دراستك؟ نحن أيضًا نريدك أن تكمليها وتكوني دكتورة لكن وأنت في بيتنا.

- إبتسام: لا لا مستحيل، كيف أتزوج وأنا ما زلت صغيرة لم أكمل العشرين من عمري؟ كيف أتزوج وأتحمل تبعات الزواج ومسئولياته وأنا لا زلت صغيرة ألعب بدميتي وأحتضنها عند نومي؟

- أم صلاح: ما هذا الكلام؟ أنت لست صغيرة وإن كان على تحمل المسؤليات وشغل البيت فأنا موجودة سأساعدك وأعلمك كل شيء، أكملي دراستك وأنا وصلاح سنساعدك.

كانت أم إبتسام تسمع هذا الكلام وقلبها ينفطر ويتمزق ولكن ماذا تفعل؟ فهي لا سلطان لها على زوجها ولا رأي لها، هى امرأة أعلنت إستسلامها من أول يوم فى زواجها حبا لزوجها وحفاظا على بيتها.

***

الفصل الثالث

وتحطمت الأحلام

خلال أربعة أشهر تم الزواج وانتقلت صاحبة المقعد الأمامي إلى بيت الزوجية، بعد أن أقنعت نفسها بأنها ستواصل مشوار حياتها بعيدًا عن الريف في العاصمة وفي بيت عمها الذي تسكنه زوجة عمها وست بنات وولدين أشقاء صلاح. سكنت إبتسام مع أهل صلاح في نفس الدار.

كانت زوجة صلاح الأولى وأولاده الثلاثة: هدى، نور، علي، يسكنون الطابق العلوي مع أهله.

عرفت إبتسام فيما بعد أن زوجة صلاح مريضة بذاك المرض العضال وفي مرحلة متقدمة منه. وما لبثت بضعة أشهر ثم توفيت لتنتقل إبتسام للطابق العلوي لتكون مع الأولاد لتهتم بهم وترعاهم وهي التي تحتاج من يهتم بها ويرعاها.

الصبية الجميلة الصغيرة ما لبثت فى غضون عدة اشهر قليلة أن تصبح مسئولة عن بيت وزوج وأولاد، وفي زحمة المسئوليات نسيت حلمها بأن تكون دكتورة.

أقنعها صلاح أن تتقدم لتعمل معلمة في مدرسة حتى تتمكن من الإهتمام به وبأمه وأولاده، أستسلمت دون اقتناع.

ويوم تلو يوم تذوب الأحلام وتتلاشى وتصير مجرد سراب أمامها، حيث أصبحت مسئولة عن كل أمور البيت.

سارت في ذلك الطريق الأعرج المتعرج تتناثر منها الأحلام حلماً تلو الآخر وتتوالى الخيبات لتجثم على روحها وتخنقها كجبل ثقيل.

ترى ذكرياتها وأحلامها كأنها سحابة في ليلة صيف أو غيمة فى نهار الشتاء. وكلما شعرت أنها تميل للحزن والكآبة إتجهت صوب دفتر وضعته فى درج مكتبها الخاص ليكون صديقها في دجى الليالي الظلماء تنثر حروفها عليه لتمتص الطاقة والهدوء والتركيز.

الحياة تخفي معالمنا لكن عندما نجلس ونحتضن دفتراً وقلماً نرى وجهنا الحقيقي وكأنه مرأة من قرطاس معتم، نرى أنفسنا الحقيقية التى تحيا أسيرة زنزانة الخوف والإحباط والإستسلام بداخلنا، فالقلم لا يخفي شيء أبداً عن المرأة يحكى لها كل شيء.

الفتاة الجميلة النقية المحبة للحياة إعتادت أن تذهب كل يوم أو كلما جال في خاطرها أن تخاطب من تمنته يكون لها ورسمت صورته، تتأمل مرأة الورق وتعشق القلم وتعشق الجلوس معهما لتكتب صدى همسات بداخلها تتناغم مع بعضها البعض، كانت

تتمنى أن لا تؤثر عليها الحياة وتجعل منها إنسانة أخرى لا ترى حقيقة نفسها وحتى تتجنب الألم في أى يوم من الأيام.

ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن...

فبمرور الأيام والأشهر أجلت إبتسام دراستها. حملت بطفلتها الأولى فتركت الدراسة نهائيًا لكن بقيت الكتب والقراءة سلوتها في الحياة.

ومرت السنين دون أن تشعر، تعبت إبتسام من حياتها ومن تدخل أخوات زوجها في تلك الحياة.

وبعد مشادة كلامية بينها وبين شقيقة زوجها حول شغل البيت قررت أن تترك البيت وتذهب لبيت أهلها.

وبالفعل طلبت من صلاح أن يأخذها هناك وفعل دون نقاش فهي لم تقل له انها ستذهب غاضبة من أخته وستبقى عند أهلها.

ظن أنها مجرد زيارة وهو لم يمنعها يومًا من زيارة أهلها وصلت هناك وبقي معها صلاح يومًا.

وفي اليوم التالي طلب منها أن يعودا للمنزل فرفضت دهش من موقفها وقال لها:

- ماذا بكِ؟
- إبتسام: تعبت وأريد أن ارتاح.

- صلاح: حسنًا أبقي كم يوم بعدها سآتي واخذك.

ذهب صلاح وبقيت هي عند أهلها، بعد ثلاثة أيام انتبهت والدتها أنها أطالت البقاء وصلاح ليس معها فاستغربت من الأمر فقد تعودت أن تأتي إبنتها يوماً أو يومان على الأكثر ومعها زوجها، فطبيعة إبتسام أنها محافظة على بيتها ومهتمة بزوجها وأولاده.

جلست الأم ووضعت رأس ابنتها على حجرها وسالتها:

- ماذا بك يا ابنتي؟
- إبتسام: لا شيء يا أمي أنا بخير والحمد لله.
- الأم: متأكدة؟
- إبتسام: نعم الحمد لله.
- الأم: أليس غريبًا أن تكوني هنا وتتركي زوجك وحده في البيت؟
- إبتسام: ليس عليه شيء إنه في بيته.
- الأم: وهو بيتك أيضًا.
- ابتسام: لقد تعبت يا أمي وأريد البقاء هنا لأستريح.
- الأم: هل حدث شيء بينكما؟
- إبتسام: أبدًا تعرفي أن قلبه طيب وحنون لكني تعبت.
- الأم: إن كان صلاح كما تقولين فممَ تعبتِ؟

- إبتسام: نضال تضايقني وتؤذيني بتصرفاتها وتدخلها في شئون البيت- أخت صلاح كانت أكبر من إبتسام بخمس سنوات ولم تتزوج فكانت تشعر بالغيرة من إبتسام الصغيرة الجميلة التي تزوجت في أول شبابها وهي التي تكبرها بالعمر ولم تتزوج مع أنها أنهت دراستها وتوظفت بوظيفة محترمة.

- الأم: ماذا حدث بينكما؟

- إبتسام: إنها تتدخل في كل شي حتى بعلاقتي مع صلاح.

- الأم: وما موقف صلاح من ذلك؟

- إبتسام: إنه يقف معي دائما رغم أنه لا يريد أن تكون هناك مشاكل بيني وبينها اوبينه وبينها.

- الأم: إذن هو يقف معك؟

- إبتسام: نعم دائما فهو يقف مع الحق وهو يعرف أنني لا أوذي أحدًا أو اتدخل في حياة أحد.

أعادت الأم السؤال بلهجة أقوى:

- إذن هو يقف معك دائمًا ولم يتخلى عنك أو يقف ضدك؟

- ابتسام: نعم يا أمي وماذا يعني ذلك؟ قلت لك تعبت من هذه الحياة ولا أرغب في العودة لذلك البيت وسأبقى هنا.

اعتدلت الأم في جلستها وقالت:

- إسمعي يا ابنتي سأقول لك شيئا ولتبقى هذه الكلمات حلقا في أذنك.. كنت أميرة مدللة في هذا البيت ولم نقصر معك في شيء لا أنا ولا والدك، أما الآن فأنت لك بيتك ومملكتك الخاصة في بيت زوجك فلا بد أن تحافظي عليها وتنثري فيها الأمل والفرح ليعم السلام على زوجك ومن حولك، أما هذا البيت فأصبح مكان نستقبلك فيه ضيفة على العين والرأس وكما هي عادة العرب ضيافتك ثلاثة أيام بعدها تعودي لبيتك وزوجك معززة مكرمة، فلا ذنب له فيما جرى ويجري.

- إبتسام: ماذا تقولين يا أمي؟ هل تطرديننني من بيت أبي؟ أين أذهب إذا لو حدث لى شيء؟

- الأم: لا حبيبتي أنا لا أطردك ويبقى وسيبقى هذا بيتك ونحن أهلك ولكن.. أنت الأن لك بيتك وأسرتك ما دام زوجك لم يقصر معك أو يتعدى حدوده معك فأنت ملزمة باحترامه وتقديره واحترام أهله وكل من يمت له بصلة.

- ابتسام: فعلا يا أمي هو لم يقصر معي يوماً. والأن ماذا أفعل هل أعود وحدي؟ هل ترضي ذلك لي؟

- الأم: انت لم تخرجي من البيت غاضبة منه اليس كذلك؟

- إبتسام: نعم.

- الأم: إذا إتصلي فيه حتى يأتي ويأخذك، أدخلي بيتك ولا داعي للكلام مع أحد هناك حول الموضوع، كنت ضيفة ورجعت لبيتك، لا جرح فيها لكرامتك.

منذ ذلك الحين لم تخرج إبتسام من بيتها غاضبة منه أبداً رغم كل الظروف التي مرت بها. فقد أدركت من كلام أمها أن هذا بيتها والمحافظة عليه وعلى زوجها وأولادها مسئوليتها.

ورغم أن بنات عمها أكملن دراستهن وتوظفن، إلا أنها ظلت باقية دون أن تفكر فى تطوير نفسها أو تغيير حالها، كانت تطبخ وتنظف وتخيط الملابس، كانت تفكر بالكل إلا نفسها، تزوج بنات عمها كلهن وبقيت هي مع أم صلاح وإخوته في البيت.

وفي يوم صيفي شديد الحرارة إجتمعت الأسرة حول صينية الشاي ساعة العصرية كما هي عادة العراقيين.

أعدت إبتسام الشاي للعائلة وأحضرت قطع الكيك الذي أعدته بيديها ثم جلست معهم وبنباهتها أحست أن هناك أمراً يريدون مناقشته دون وجودها، فانسحبت بهدوء وذهبت إلى غرفتها في الطابق العلوي، وبشيء من الفضول حاولت أن تعرف ماذا يجري،

اخذت تسترق السمع إلى حديثهم فسمعت نديم شقيق صلاح الأصغر يقول:

- أريد أن أتقدم لخطبة بنت خالي سناء فما رأيكم؟ أنا أحبها وأريد الأرتباط بها.

- الأم: لا مانع لدي، فالبنت جميلة وصغيرة وهي بنت خالكم.

فجأة ودون مقدمات صاحت إحدى أخوات صلاح قائلة:

- كيف تتزوج واحدة لم تنهِ دراستها بعد؟ إلا يكفي أن صلاح تزوج جاهلة لم تنهي دراستها ولم تتوظف لتعينه؟ ألا تريد من تسندك أم ستبقى مثل أخيك متحمل لكل شي؟

كانت إبتسام تسمع الحوار، أحست أنها شجرة عارية أسقطت أوراقها على رصيف العمر ليدهسها كل من يمر بأقدامه ولتكسر هذا الصمت.

صرخت بداخلها صراخاً تجاوبت معه شرايين قلبها وكوامن عقلها، علا الصدى وفض بكارة السكون داخلها: أهكذا أنا؟ كيف بقيت كصومعة نسيان غمرتها ظلمة الليل وهموم أنفاسها؟ ألم أكن كالنهر الجاري يروى العابرين والوديان؟ أرهقت نفسي للعبور لأمضي كإنسان؟

وقع كلام إبنة عمها كوقع الحسام على الرأس تمنت لو أنها ماتت قبل سماعه.

أنتبه صلاح لزوجته وعرف أنها سمعت الكلام ففتح جرحها القديم.

نهض مسرعًا يحاول التخفيف عن زوجته التي ضحت من أجله سنوات وسنوات، لم تنتبه إبتسام لوجود صلاح قربها، أسندت رأسها على الحائط وسرحت وبنظرة تأمل من عيون تملؤها الدموع حدثت نفسها:

- يا الله كيف انتظرت كل هذا الوقت لأفهم!

كان الإنتظار الثقيل يجثم على روحها وبدنها ويخنقها، شحب لونها وبردت أطرافها، وسألت نفسها: كيف تبخرت سحابة صباي؟ كيف انتظرت من يصدمني لأعود للحياة؟

إنتفضت إبتسام من غفوتها واعتدلت في جلستها تلفتت حولها فلم تجد أحدًا إلا هي وأفكارها التي تبعثرت، كان الجو خانقًا كأنها ارتفعت في الفضاء حيث الفراغ بلا هواء فقدت أوكسجين حياتها، إرتعش جسدها الريان واختض من أخمص قدميها حتى قمة رأسها.

تريد الصراخ فلا تستطيع... تود البكاء فلا تستطيع. تود لو تبكي أو تصرخ علها تنقذ قلبها وعقلها.

أتراني أبكى على روحى أم أضحك سخرية من ضعفى؟ هل تراها صيحة مخنوقة أم حسرة حارقة على ما مضى؟

جفت الدموع في أحداقها، حين تحطم حلم حياتها وصاحت بصوت بلا صوت تستغيث رباااااه... إلى أين السبيل؟ وكيف سأعود لنفس الدرب؟ تركت ساقاها تحملها دون تفكير نحو القرار...

سأغادر هذا العالم الذي حبست نفسي فيه ولن يكون مجرد حلم يفسده الدهر أو يمزقه كخيط واه كخيوط العنكبوت.

أصبحت إبتسام تتحرك في بيتها كمن يمشي في نومه، وينتظر أن يصحو وتعود له الحياة، تناجى نفسها: أيها الوجع الساكن ثنايا روحي أما سئمت السكن في هذه الروح التي تجرعت الكؤوس حد الثمالة وارتشفت نبيذ القهر حتى الإدمان فتخدرت أوصالها ولم تعد تبالي؟

ظلت إبتسام على هذا الحال حتى جاء صلاح يوما ليقول لها: - تفضلي

- قالت له: ما هذا؟

- قال لها: خذي فقد سجلت اسمك في جامعة مسائية لتكملي تعليمك وتحققي حلمك المنشود.

***

الفصل الرابع

بدأ المشوار

لا يزال هناك شيئ من الأمل يقف في وجه اليأس، يحثنا على البقاء والإنتظار حتى يحل الفرح.

من هنا بدأت إبتسام التحدي، التحدي لذاتها، كيف ستنتصر على ذاتها أولاً وعلى محيطها ثانياً؟

إرتفع صوت داخلها معلنا ولادة فارسة تتحدى وتسعى لتبارز بشجاعة كل الفوارس ليزف العمر انتصارها وترقص الشمس بلا وجل لمشوارها.

بدأ المشوار...

كانت تجاهد، تدرس وتدرس لتكون على مدى سنوات الجامعة من الأوائـل، كان البلاد في وضع حصار وحالتها المادية دون المتوسط ولابد لها أن توفر أجور الدراسة.

فكرت بالعمل مع الدراسة ولصعوبة ذلك خطرت في بالها فكرة، حيث لم تكن توزع الكتب على طلبة الدراسة المسائية ففكرت أن تقوم بشراء كتب المنهج ثم نسخها وبيعها إلى الطلاب.

لاقت الفكرة استحسان الجميع حتى الأساتذة شجعوها لتقوم بذلك، وبدأ الكل يوصيها لتوفر لهم المنهج. هكذا لم تثقل على صلاح بالمصاريف ولم تؤثر على أسرتها.

انتهت رحلة الجامعة وتخرجت وكانت من العشرة الأوائل، بعد تخرجها قدمت أوراقها للتوظف بشهادتها الجامعية.

ترقى صلاح في وظيفته وأصبحت الحالة المادية للأسرة افضل. لكنها مع هذا أصرت على التعيين فكان الكل مستغرب ما فائدة تلك الوظيفة وهي لا تحتاج ما ستحصل عليه من راتب، وحتى ماسوف تحصل عليه من الوظيفة مبلغ بسيط لن يضيف كثيراً ، وفي يوم سألها مديرها المباشر قائلا:

- استاذة إبتسام ممكن أسالك سؤال؟
- إبتسام: نعم تفضل أستاذ.
- المدير: لماذا توظفت وتتعبين في الشغل مع أنك لست محتاجة إلى ما تأخذينه؟
- إبتسام: أستاذي العزيز لكل منا ظروفه وتحدياته وأنا بعملي هذا تحديت ذاتي وأردت أن أثبت لنفسي أولًا وللمحيطين بى ثانيًا أن الظروف ليست سوى شماعة نعلق عليها ما نرتكبه من

أخطاء وما نجنيه من فشل وأن التقليل من الذات هو سبب فشلنا في الحياة. لا أحتاج للمال نعم هذه حقيقة لكني أحتاج أن أكون أنا هو أنا التى أحبها وأفخر بها، أحتاج إلى أعادة بناء شخصيتى من جديد شخصيتي التي تصدعت بتضحياتي، أحتاج إلى تطوير قدراتي، أستاذي العزيز ليس هناك شخص أفضل من شخص إلا بما يقدمه من عمل في حياته، إن شعاري في هذه الحياة الحاجة للعلم والتطور لأكون إنسان.

قامت إبتسام بتربية أولاد زوجها مع أولادها دون أن تفرق بينهم، كانت تعتني بالبنات وتتابع حياتهن ودراستهن.

بدأت إبتسام تلاحظ أن (ندى) البنت الكبرى لصلاح شابة جميلة ذات سمار أخاذ وشعر أسود منسدل على أكتافها، جميلة، محبوبة، مؤدبة، مجتهدة في دراستها.

لاحظت إبتسام أن ندى بدأت تبتعد عن جو الأسرة وتنعزل ساعات وساعات وحدها وكلما سألتها إبتسام:

- ماذا بك؟ لماذا دائما تجلسين وحدك لم لا تجلسين معي ألست تعتبرينني صديقتك ألم نتفق ان نكون أصدقاء؟

طأطأت ندى رأسها حتى كاد يكون بين قدميها، فرفعت إبتسام رأسها بيديها فأشاحت ندى عيونها عن إبتسام .

- ابتسام: حبيبتي ماذا بك أخبريني، أنا من ربتك مذ كنت طفلة صغيرة، أنت ابنتي ألا تعلمين أن الأم من تربي وليست هى من تلد، حبيبتي تكلمي ماذا بك؟

- ندى: بدأت أكره المدرسة ولا أريد ان أكمل تعليمي.

- ابتسام: ماذا؟ ماذا تقولين حبيبتي؟

- ندى: تراودني فكرة أن أترك دراستي لأني تعبت جدًا وأشعر أنه لا أهمية من استمراري بالدراسة.

- إبتسام: إبنتي حبيبتي ماذا دهاك لمَ تغيرت نظرتك للدراسة؟ ألم تكوني ترغبي أن تدرسي اللغات؟ وأنت ما شاء الله عليك ممتازة في اللغات.

- ندى: وما أهمية تعليم المرأة وهي في النهاية ستتزوج ويكون زوجها ملزم بالإنفاق عليها وتوفير كل ما تتمناه؟

- إبتسام: من قال لك ذلك؟

- ندى: هناك كثير من صديقاتي تزوجن وهن سعيدات بذلك.

- إبتسام: هل تظنين أن الزوج يملك مصباح علاء الدين ليوفر كل ما تتمناه زوجته؟ حسب رأيك ما علاقة التعليم بالزواج؟ ثم من قال لك أن من تزوجت من صديقاتك هي سعيدة؟ حبيبتي ندى. ادرسي وتعلمي حتى يأتي من ترضين به زوجًا وفي فترة الأنتظار استمعي لنصيحتي، فأنا وكما تعلمين تزوجت وتركت دراستي حتى ضاع حلمي، نعم والدك ساعدني لأعود وأكمل دراستي لكن هناك فرق أن أكون دكتورة وبين أن أكون معلمة كما أنا الأن، إسمعي مني يا ابنتى وأنت في فترة الأنتظار عليك ببناء نفسك وشخصيتك، حاولي أن تواكبي التطورات في مختلف مجالات الحياة.

- ندى: وما الفائدة من ذلك؟ قلت لك يا أمي ان قسم من صديقاتي تزوجن وهن سعيدات في حياتهن لا تعب الدراسة ولا مشاكلها.

- إبتسام: هل أنت متأكدة أنهن سعيدات الأن؟ ما أدراك أنهن سيظلوا على هذا الحال عندما يصبحن أمهات كما أن هن لن يتمكن من متابعة تعليم أولادهن مع تطور العلم والتعليم؟

طأطأت ندى رأسها مرة أخرى وبصوت خافت يخرج باستحياء من فمها قالت:

- أخ لأحدى صديقاتي يريد أن يتقدم لخطبتي.

- إبتسام: أهلا به، لكني أسألك: ما هي مؤهلاته؟ هل أنهى دراسته؟ هل عنده قدرة ان يعيشك في المستوى الذي تعيشين فيه؟ هل تفكيره مثل تفكيرك في الحياة؟... حبيبتي، أنت في المرحلة الأخيرة من الدراسة الثانوية لم يتبق غير سنة واحدة وتلتحقى بالجامعة ومستواك الدراسي فوق الممتاز، إطلبى منك حبيبتي ان تسألي نفسك الأسئلة التي سألتك إياها فإن كان يملك تلك المؤهلات ويريدك فليصبر حتى تدخلي الجامعة ولا أقول ينتظر حتى تنهيها، ادخلي الجامعة وليتقدم لك عندئذ والقرار لك.

- ندى: حاضر أمي .

- إبتسام: أود أن تعلمى جيدا أن التعليم يكسب المرأة مكانة إجتماعية مرموقة ويشعرها بأنها ذات أهمية، أنت لست صغيرة أترين أنني الآن افضل بعد إنهاء دراستي وتعييني أم كنت أفضل وأنا في البيت لا عمل لي إلا ترتيب البيت وتنظيفه والطبخ أيهما أفضل برأيك؟ لا أريدك ان تكوني منكسرة فالمرأة المنكسرة لا تثير شيئا سوى الشفقة، كوني قوية أمام متقلبات الحياة.

بعد هذا الحديث بين إبتسام وندى عادت ندى شيئا فشيئا لطبيعتها وبدأت تهتم بدراستها حتى أنهت المرحلة الثانوية ودخلت

كلية اللغات وتخرجت منها بتقدير جيد جداً وحصلت على وظيفة في وزارة الخارجية ومن ثم تزوجت زميل لها.

ظلت ندى تشعر بالإمتنان لإبتسام لأنها انقذتها من الضياع في فترة كان لتأثير الصديقات عليها جانباً سلبيا. أنجبت ندى ولد وبنت تعتبرهم إبتسام أحفادها.

***

الفصل الخامس

ميلاد ملكة

عاشت إبتسام وهي تشعر أن ظلها يسقط كأوراق الخريف وأن روحها منسية في صحراء لا خضرة ولا ماء، حياتها غيمة صيف لا تمطر ونبع جف.

رغم أنها تعيش مع زوج يحبها لكنه لا يعرف كيف يعبر عن ذاك الحب، حقا أنه كان يحترمها ويقدرها، لكنه لم يقل لها يوما أنه يحبها، طبيعتها تحب سماع كلمة أحبك من رجلها التى تعيش معه، ربما هذا ما جعل هناك فجوة بينها وبين زوجها، هو يحبها لطيبتها ، لم تعارضه، لم تقطعه من أهله، لم تفرق بين أولادها وأولاده.

لذا قلب إبتسام بقي خاليا لم يفتح أبوابه للحب فلم تجد فارس الأحلام الذي حلمت به، لم تجد الحب الذي كانت تقرأ وتسمع عنه، لم تمر بتلك التجربة، تلك المشاعر التي تجعلها تسهر وتفكر وتحلم باللقاء، لم تمر بالإحساس بالشوق والغيرة، عاشت مع كل صباح تشاهد المرآة لكنها لا ترى غير ملامح وجه عادية ولا ترى في حياتها شيئًا آخر اعتادت أن تعيش هكذا.

ظلت إبتسام تحيط نفسها بقشرة فولاذية لا تسمح لأحد أن يخترقها، حياتها قيثارة لم تجد من يجيد العزف عليها، عاشت مركونة كقطعة من الخردة بين ثنايا الزمن تنتظر من يحتضنها بين يديه ويقدر قيمتها، سراب عمر فليس هناك لقاء كلما تقدمت خطوة في الحياة إبتعدت أميال.

العمر يمضي والسير إلى الوراء كأنه تقدم وهمى بالنظر في وجوه الغرباء، وتعب القلب يتزايد حتى ما عاد يطيق السكوت.

حتى جاء يوم ليس كباقي الأيام، تغيرت أحوال العراق وكأن جاء لتغير حالة إبتسام كأنها مرتبطة قدراً مع ذلك التغيير.

دخل «الإنترنت» وبدأت الحياة تتفتح قليلاً رويداً رويدًا على العراقيين ومنهم إبتسام.

بعد عشر سنوات من الإحتلال فكرت إبتسام ان تجرب فتح صفحة فيس بوك وفعلت، كانت تحاول ان تكتب ما يجول في خاطرها على تلك الصفحة بدل الأوراق لتسمع آراء الآخرين بما تكتب.

مرَّ شهر تقريبًا، ثم طلبت صداقة «شريف» على صفحتها بعد أن دخلت صفحته واخذت تتصفح ما ينشره وتتابع نشره.

أدركت انه شخصية مختلفة، تفكيره من خلال ما ينشره مختلف عن الآخرين، كان شريف قد وضع صورته على صفحته، عيون تنم

عن ذكاء وابتسامة تبعث الأمل في نفس كل ينظر إليها، سماره من سمار النيل.

شريف شخصية عملية جداً يوصل الليل بالنهار في عمله يؤمن بقيمة الوقت، تفكيره غربي تجاه العمل والتعامل مع الآخرين.

كان يسعى منذ بداية شبابه إلى أن يحقق أكبر نجاح ممكن في حياته، له إرتباط وثيق بالطبيعة، يعشق البحر والجبال، يحب الهدوء، كان مرتبط بالطبيعة إلى حد كبير ولديه إيمان أن الليالي القمرية تحسن مستوى الحياة جدا ولها تأثير كبير على المزاج.

وفي ليلة قمرية أثناء قراءة صفحات التواصل الاجتماعي وقعت عينه على منشور على صفحة إبتسام قرأه وجد فيه شيئًا غامضًا وعقب عليه كان لديه شعورًا بأن إبتسام ستفهم معنى كلامه فقد أدرك بفطنته أنها صاحبة شخصية قوية، ذكية، عملية.

وبالفعل تفاعلت إبتسام مع تعليقه ووجدها تحادثه كتابة على الماسنجر فتعليقه على ماكتبت شجعها لتكتبت له ولتعرف من يكون وكيف يفكر؟

رد عليها ووجدها كما توقع غير سعيدة، كانت عصبية ومزاجها سيء، وقتها كانت في حالة نفسية مضطربة لا تعطي الأمان لأي

رجل، تؤمن أن الرجال وحوش ما عدا والدها صاحب الشخصية القوية، طيب القلب.

حاول شريف أن يهديء من روعها بكل هدوء تعامل مع الموقف بذكاء.

لقد وهبه الله ملكات كثيرة منها إدارة عقول البشر، كتبت له ورد عليها ودار حديث طويل بينهما.

كانت إبتسام تعاني من إهمال زوجها وعدم إهتمامه بها، بدأت الحديث مع شريف رغم أنها لا تكلم أحدًا خاصة الرجال فهي لا تثق بهم والأكثر إن كانوا من بلدها فهي تعرف طبيعة تفكيرهم ونظرتهم للمرأة التي تتحدث على الخاص مع رجل حتى وإن كان حديث عادي.

كان شريف من بلد آخر، سألها عن اسمها أجابت:

- إسمي إبتسام وأنت؟
- اسمي شريف.

بدأ شريف يناقشها في المنشور الذي وضعته على صفحتها، وقال لها:

- لماذا هذا اليأس والإستسلام؟

بدأ شريف حديثه بذكاء بعد أن شعر أن إبتسام إطمأنت للحديث معه ومن خلال حديثها عرف أنها متزوجة من رجل يكبرها بالعمر.

إستغل شريف هذه المعلومة فهو خبير بالتعامل مع الآخرين ليبدأ حديثه معها بسرد قصة لها فقال:

- أعرف فتاة شابة تزوجت من رجل كبير في السن وبحكم فارق السن بينهما كانت تحدث بينهما مشاكل عديدة لم يكن للزوج ذنب فيها ولا للزوجة، بل كان السبب أن الزوجة الشابة لم تكن تشغل وقتها بأمور تجعلها تطور نفسها أوتغير من حالها، بل كانت ناقمة على نفسها وعلى حياتها بسبب وقت الفراغ الذي تعيشه وبعد تفكير من الزوجة وصلت إلى أنها لابد أن تغير من نفسها تقرأ، تبحث، تتعلم ولا بأس أن تعود للدراسة لتحصل على شهادة تغير من وضعها ومكانتها في المجتمع.

كان شريف يتكلم وابتسام تستمع له وتربط كلامه بحياتها، في هذه اللحظات أحست إبتسام كأنها تعرف شريف منذ زمن بعيد رغم أنها أول مرة تحادثه.

شعرت أنها تعرفه منذ الأزل وكأنها عايشته في زمن مضى، وفي ذات اللحظة أدركت أنه رغم أنها عاشت مع إنسان دهراً كاملاً من العمر لكنها طوال هذا الوقت كانت تشعر بالغربة معه.

صدمت إبتسام وهي تجد إنسانا يشبهها ليس في المظهر أو الملامح أو الجنس أو الطباع ولكنه يشبهها بالروح، راودها شعور

غريب بأن من تحادثه روحه تحمل نفس المشاعر وتعتنق نفس الأفكار وهو يشبهها في الآراء، في الناس والحياة والمجتمع .

أحبت إبتسام حديث شريف فقد فتح في روحها نوافذ خضراء، وهو يقول لها:

- أظنك قادرة أن تغيري من طريقة حياتك وأسلوبك في التفكير ثم قال مستدركا حديثه: أنت بوسعك أن تضيئى حياتك وحياة من حولك.

- شريف: هل فهمت المقصود من هذه القصة التى رويتها لك؟

- إبتسام: نعم أدركت ما تريد أن توصله لى من حديثك.

- شريف: لا يعني كونك تعيشين مع رجل أكبر منك أن تضيعي حياتك ومستقبلك في أمور لا جدوى منها، لا أقول حاولي بل اعملي على بناء إسمك بكل قوتك، كوني أنت ولاتكونى غير هذا.

كانت إبتسام ذكية جدًا فقد أدركت أن شريف من النوع الذي يضع خطوطًا حمراء في علاقته مع الآخرين، فهو يدرك أن هذه الخطوط تعمل كأسلاك الكهرباء تصعق كل من يقترب منها.

وحفاظًا على علاقته مع الآخرين كان متمسكًا بتلك الخطوط، لا يسمح لأحد أن يقترب من خصوصياته، كما أنه لا يقترب من خصوصيات الآخرين.

حديثهما كان يطول ساعات وساعات دون أن يشعرا بالزمن، يحدثها عن الحياة عن المستقبل، عن الأمل بأن تكون يوما نجمة يشار لها بالبنان، كانت إبتسام تستمتع وهي تسمع حديثه.

كان شريف شخصية عملية، فهو لا يضيع الوقت دون استثماره في العمل، لأنه أخذ عهدا على نفسه أن يكون الأفضل، يسعى للنجاح في كل مجال يدخل فيه، يعمل ويعمل ويربط النهار بالليل لدرجة أنه ينسى هل أكل شيء أم لا، درس واجتهد حتى حصل على أعلى الشهادات، عقله المتفتح جعله يفكر في كيفية إستثمار عقول البشر، فهو يسعى إلى تنمية عقول البشر وتنويرها إيمانا منه بأن تنوير العقل ينعكس على نجاح الإنسان، فهو إنسان يتبع الأسلوب العلمي في كل محاور حياته لا يؤمن بالمستحيل.

خاطب شريف عقل إبتسام دون النظر إلى جسدها وشكلها وجد إنسانة تحمل صفات يتمناها أي رجل رغم أن المجتمع اعتاد رؤية النساء ناقصات عقل ودين وهذا زاد من قيمته في نظرها وجدته رجل حقيقي في زمن ضاعت فيه قيم الرجولة.

بدأ قلب إبتسام ينبض بحبه وجعلها هذا الحب سعيدة، تطورت العلاقة بينهما واستمر الحديث بينهما أشهر وامتد سنوات. وطول هذه الفترة لم يطلب شريف أن يرى حتى صورتها او يعرف شكلها

فهي لم تكن تضع صورتها على صفحتها إنما وضعت صورة تدل على شخصيتها المضحية.

كانت إبتسام أحيانا تستغرب ان يكون هناك رجل عربي يهتم بعقل المرأة أكثر من جسدها وملامحها سألته ذات مرة:

- أليس غريبا أن تكون عربيا ولا تسأل عن شكلي وكيف أبدو؟

- شريف: انا لست ممن يهتمون بالشكل فما جذبني إليك هو عقلك وذكائك.

هذا الأمر جعلها تتمسك به أكثر وتحبه أكثر وأكثر، وكانت تحادث نفسها هل من المعقول وجود رجل بهذا التفكير.

وبدأت تسترجع خواطرها التي كتبتها من سنين وقبل أن تعرفه كأنها كانت تكتبها له صفاته، أخلاقه، أفكاره وكأنهما التقيا منذ آلاف السنين في زمن غير هذا الزمان مع كل ما موجود في هذا الزمن من تناقضات، فهو زمن تدنت فيه الأخلاق وساد الفساد الفكري، أستمرت علاقتهما دون أن يشوبها أى شيء.

الصباح كان يبدأ بينهما فلا يمر يوما دون أن يرسل لها تحية الصباح أو تفعل هى ذلك، فيبتسم الصبح جميلا وتشرق شمس حديثهما لترسل أشعتها الذهبية على مزارع قلبيهما ويهمس النسيم العليل في حديثهما حتى ينطوي اليوم بنهاره وليله مبتهجين بذلك الحديث.

بات حديث شريف المنقذ الوحيد من سطوة الضغط وضيق أفق المجتمع الذي تعيشه، أحست أنها فراشة خرجت من داخل شرنقة.

بدأت التفكير كيف تطير وتحلق في السماء، عقدت العزم على السفر وهي التي كانت لا تملك جواز سفر إلى أن عرفته.

حثها شريف على السفر لترى العالم فهي تستحق، كانت طبيعته التحفيز والتشجيع حاول يستفزها عندما سألها هل سافرت خارج العراق؟

- إبتسام: لا فأنا لا أحب السفر ولا أطيق الإبتعاد عن بلادي.
- شريف: ماذا؟
- إبتسام: اختنق لو سافرت خارج بغداد إلى محافظة أخرى فكيف إذا سافرت خارج العراق؟
- شريف: هل أنت شجرة؟
- إبتسام: لماذا تقول ذلك؟ ولماذا تشبهني بالشجرة؟
- شريف: فقط الأشجار لا يمكنها الإنتقال من الأرض التي غرست فيها وأنت إن لم تستطيعي الإنتقال من أرضك، إذن تكونين مثل الشجرة.

فكرت إبتسام لماذا هذا الرجل يشغل تفكيرها ويحظى باهتمامها؟ وبدأت تحاوره في شتى المواضيع.

حاولت تبحث عن إجابة لهذا التساؤل حتى توصلت إلى أنه قد تلتقي بإنسان لأول مرة في حياتك وبعد دقائق تشعر أنك تعرفه منذ أمد بعيد وقد تحيا مع إنسان طوال حياتك في بيت واحد ثم تكتشف بعد سنوات أنك لم تعرفه أبدا.

إنها حقيقة فالإنسان الغريب ليس الذي لم تقابله من قبل إنما هو الذي قابلته وعشت معه لكنك أزدت بعداً عنه وجهلاً به.

فقد يحدث أن ترى إنسانا تختلف معه في كل شي وبعد دقائق من الحديث معه تذوب كل الفوارق وتختفي وهذا ما حدث بين شريف وابتسام، فقد شعرت أنها تقترب منه وهو يقترب منها فكراً ومساحة وشعورًا وفهمًا حتى وصل الحال بينهما أن يسمع كلاهما كلمات الآخر قبل أن ينطقها، تقتنع برأيه قبل أن يشرحه وهو يقتنع بكلامها عندما تحادثه.

كانت إبتسام تحدث نفسها: هل من المعقول أنني لم أرَ هذا الشخص من قبل ولم أحادثه؟ لدرجة أنها توهمت أنها ربما قد رأت شريف في عالم قبل هذا العالم، وأن صداقة نشأت بينهما في حياة أخرى قبل هذه الحياة، لا بد أنه عاد لها لتكتمل هذه الصداقة ويعود الحب ليربط بينهما فترتبط روحهما وتتصافح قبل أيديهم وعيونهم.

وجدت إبتسام أن شريف يشبهها خارجيًا وداخليا فقد كان أنيق الملبس مثلها، قوي الشخصية فيه مزايا تشبه ما بداخلها طيب القلب من يراه يخشاه يعشق نفس الأنغام، يحب الهدوء، نفس الرأي في الناس والأحداث والأفكار وكأنهما كالظل للجسد لا يفترقا أبدًا.

***

الفصل السادس

شرارة الانطلاق

شعرت إبتسام بالندم لأنها لم تسع لتحقيق حلمها ولم تخطط لمستقبلها بشكل صحيح.

أضاء شريف فنارة التحدي في عقلها، بدأت تبحث عن التغيير وتسعى لتحقيقه، قررت السفر بعد أن وجهت لها دعوة من إحدى الصديقات في مصر للمشاركة في بعض النشاطات الثقافية، فقد أصبحت مهتمة بذلك الجانب بعد تعرفها على شريف.

دخلت إبتسام المطار لأول مرة في حياتها وقفت منبهرة: يا الله ما هذا الجمال؟ كيف لم أفكر أن أدخل هذا المكان من قبل؟

وفي صالة الانتظار بدأ شريط ذكرياتها يمر أمامها كأنه شريط سينمائي، الفتاة الجميلة تركت دراستها وهي المتفوقة لتكون زوجة ثانية لرجل يعيش في المدينة لا هم لها إلا عمل البيت وإرضاء زوجها وأهله.

الأحداث تمر وشحنة من الطاقة الإيجابية تسري في عروقها، بدأت تصرخ داخلها: لست شجرة ولن أقبل ان أكون كذلك،

لست دودة تعيش داخل شرنقة بل أنا فراشة أطير فوق أجمل الزهور.

أنا زهرة جميلة فواحة العطور لونى بلون السماء عند الشروق، انثر عبيري في الفضاء لأغذي القلوب وأنعش النفوس.

سفرها إلى بلد معلمها وصديقها وأستاذها شريف الذي أعاد البسمة إلى حياتها بكلمات كان يكتبها وهي تقرأها وتقتنع بكل حرف فيها، وجدت حبها الحقيقي شعرت أنه أجمل حب أحسته فى حياتها لأنه خالي من الغايات والأغراءات بعيدا عن المصالح والماديات.

نادى الموظف في المطار معلنا لحظة الصعود على الطائرة لم تكن تعرف إبتسام هل نادى على انطلاق الطائرة أم نادى على انطلاق قلبها في الفضاء؟ ركبت الطائرة وهي في حالة إندهاش، كيف فعلتها؟ كيف قررت وصممت؟

ركبت الطائرة وداخلها شعور أنها تركب قارب الأمل لتبحر نحو مستقبل مشرق، فالحزن لا يغير من الواقع شيئا لكن الإبتسامة تفتح واقعا جديدا والانطلاق نحو المستقبل قرار لابد منه.

ركبت إبتسام الطائرة معلنة الخطوط الجوية العراقية عن قيام طائرة بوينج ٧٠٧ المتوجهة إلى القاهرة عن الإقلاع الساعة التاسعة

صباحا بتوقيت بغداد للوصول إلى مطار القاهرة الساعة الحادية عشرة صباحًا.

كان مكان جلوس إبتسام قرب النافذة وكأن الله استجاب لها حين تمنت بأن تجلس هناك، بقيت إبتسام تنظر من النافذة للأرض، الطائرة تعبر الأنهار والبحار والجبال والصحارى والسهول وهي تعبر بأحلامها كل العوائق تعبر العادات والتقاليد التي قيدتها سنين وسنين.

سألها شريف عن موعد الوصول وفي أي صالة سيكون ولأنها لم تسافر من قبل لا تعرف التفاصيل لم تخبره بموعد الوصول فقط موعد الإقلاع، لم يخبرها أنه سيأتي لإستقبالها ولم تكن تعلم انه سيكون بانتظارها، ترك شريف عمله في ذلك اليوم وهو الذي تعود أن لا يترك عمله تحت أي ظرف من الظروف.

كان في انتظارها في المطار حاملا باقة جميلة من ورد أحمر تمنى أن يكون أول شخص يستقبلها في أول رحلة لها في بلد ليس لها فيه أحد سواه.

حضر لأنه أراد أن يرى من اعتبرها مشروع نجاحه في إعادة هيكلة لشخصية لم يرها أبدا لكنه آمن بأنها تستحق.

طال انتظاره وظل واقفا شاخصا بصره على كل من ينزل من الطائرة لكن للاسف لم يلتق بها، عاد إلى مكتبه حزينا لا يعرف كيف سيلتقي بها أو يتواصل معها.

أول شيء فعلته إبتسام وهي في المطار اشترت شريحة موبايل برقم مصري وقامت بتفعيل باقة النت وكتبت له.

- شريف: حمدا لله على سلامتك.
- ابتسام: الله يسلمك ويخليك عزيزي.
- شريف: أين ستنزلين؟ هل حجزت في فندق؟
- إبتسام: نعم لقد حجزت فندق عبر النت سأنزل فيه إنه في وسط البلد.
- شريف: خذي تاكسي واعطيه العنوان ليوصلك هناك.
- ابتسام: سأفعل.
- شريف: حمدا لله على سلامتك نورتِ مصر، أكتبي رقمي واتصلي بي بعد أن تستريحى لنلتقي.
- ابتسام: الف شكر عزيزي ربي يحفظك ولا يحرمني منك.
- شريف: مع السلامة.
- إبتسام: مع السلامة.

وصلت إبتسام إلى الفندق لتستريح. كانت سفرتها بناءً على دعوة من صديقة لها في مصر وكان هناك إتفاق على المشاركة في نشاطات ثقافية وزيارة معرض القاهرة للكتاب، تعرفت إبتسام

على مجموعة من الأدباء والشعراء العرب وأصبحت بينهما علاقة صداقة أستمرت طويلا .

في صباح اليوم التالي نزلت إبتسام وبعض الأصدقاء لزيارة معرض الكتاب أبلغت شريف بذلك لم تطلب أن تراه وهو لم يطلب لكنها التفتت فرأت شريف يقف أمامها جبلا شامخا، طار قلبها فرحا لم تتمالك نفسها والإبتسامة تعلو مبسمها أشارت إليه أنت!؟

- شريف: نعم هو أنا .
- إبتسام: كيف عرفتني؟
- شريف: لا أحتاج أن أرى صورتك لأعرفك ولا أحتاج لوصف لك لقد عرفتك بروحي فقد التقينا سابقا هل نسيتي؟
- إبتسام: لم أنس، لكن كيف؟

سلم عليها وهما يقفان أمام صالة ضيوف الشرف، عاد إلى مكتبه مسرعا، كان يحمل في يده هدية لها:

- تفضلي.
- إبتسام: شكرا لك.
- شريف: هي لك كنت اتمنى أن أكتب اسمك عليها لتبقى ذكرى.
- ابتسام: ستبقى حتى وإن كانت دون إسم فهي منك وستكون تميمة أحملها معي أينما اذهب.

أصبحت هدية شريف لا تفارق يد إبتسام حافظة ورق جميلة تحملها أينما تذهب تضع فيها أوراقها وتطمئن أنها بيدها وكأن شريف يمسك يدها ويشد عليها لتكون أقوى.

قضت إبتسام عشرة أيام كأنها في الجنة رغم أنها لم تقابل شريف إلا مرة واحدة وكانت صدفة في المعرض أيضا، عادت لبلدها تحمل ذكريات جميلة لم تفارقها أبدا.

بدأ شريف يكلمها عن مستقبلها ودراستها العليا ولا بد أن تتعلم اللغة الانجليزية وتجيد التحدث فيها...

- شريف: لابد أن تكملي دراستك وتأخذي الماستر ثم الدكتوراة.
- ابتسام: وأنا في هذا العمر؟
- شريف: وهل بلغت من العمر عتيا؟ لا زلت قادرة على الدراسة والعطاء.
- ابتسام: كيف؟
- شريف: إسألي، إبحثي كيف يمكنك أن تسجلي على الدراسة في بلدك.
- ابتسام: حاضر إن شاء الله سأفعل.

اقتنعت إبتسام وبدأت تبحث كيف يمكنها أن تقدم للحصول على الشهادة العليا، وجدت الحل ان تدرس على نفقتها الخاصة.

أصبح الليل وحده مأوى لها تنتظر قدوم شريف بحنين شجرة ظامئة، تعرف أن حبها له مجرد حنين لا رجاء منه، مع هذا كل يوم يزداد حبها له وتعلقها به، إهتمامه جعلها تحبه فالحب إهتمام قبل أن يكون كلام، أهتمامه جعلها تفتقده كل نبضة قلب وكل رمشة عين، حبها أصبح كل يوم ينبت في قلبها وروحها، لقد أيقظ إهتمامه الجثة الهامدة داخل جسدها.

ما بينهما كان حبا عفيفا ليس فيه ما يخدش الحياء، حبا عذريا لا يتعدى حدود الإهتمام به والسؤال عنه لكنه في قلب إبتسام أحيا كل الآمال.

بات شريف ملهم حياتها بدأت تصوغ له الحروف وتنشرها، فهو بحدوده التي وضعها منع نفسه أن يقول كلمة «أحبك» صراحة، كأنه يقول لها لا تبوحي بحبك ودعي ما بيننا يدوم ويقوى .

***

الفصل السابع

أفتقدك كثيرًا

إن كانت إبتسام شاعرة وهو ملهمها فماذا تفعل؟

في ليلة أحست أن شريف تغير عليها وانسحب من حياتها، شعرت كأن روحها عرجت إلى السماء كتبت له لم يرد عليها ظلت تكتب وتكتب دون جواب، إنه يقاوم حبه لها بالإنسحاب من حياتها لعله يتمكن من نسيانها لكن مثل إبتسام لا تنسى كتبت له قائلة:

- سؤال لك وأنتظر الرد: لم انت حائر؟ لم انت متصارع الأفكار؟ في داخلك حيرة؟ تريد الإبتعاد أم تريد البقاء؟ إختر ما تريد، دعني أساعدك في الاختيار... إختر تسمية تجعلك تستريح، تريد أن تكون حبيبا؟ فأنت الحبيب. تريد أن تكون صديقا؟ فكن أنت الصديق. تريد أن تكون أخا؟ لتكن إذا أنت الأخ والسند. إختر ما تريد، المهم أن لا تبتعد، لا تجعل للصد مكانًا بيننا، أنا احتاجك وأنت كذلك، ورغم كل شيء وأى شيء دعني أحبك كيفما أشاء... أحبك بصدق، أحبك بكل وفاء، أحبك بروعة الإحساس ونبض الحياة وروح الأمل، أحتاجك صديقا، أحتاجك طبيبا،

أحتاجك لتغنيني عن كل الناس، أحتاجك ماء يروى بيداء حياتى، دعني أضمك بين أضلعي، أناديك لتبقى في حياتي شمعة، دعني أقترب منك بكل براءة ونقاء، دعني أقترب منك بإحساسي، بأحلامي، دعني أكون كلمة صدق لك وتكون أنت لي كل الأصدقاء.

نشرت رسالتها تلك على صفحتها هي تعرف أنه يتابع ما تكتبه وهو يعرف أنها تكتب له، عاد بعدها وكأنه كان ينتظر أو أنه لم يتحمل ألم فراقها.

عادت الأحاديث بينهما لكنها كانت كأنها بدأت من الصفر وكأن علاقتهما للتو قد بدأت.

أحست إبتسام انه لا أمل في حبها وربما يكون حباً من طرف واحد لكنها لا تريد أن تقتنع بذلك ولا حتى أن تحاول إقناع نفسها بهذا.

بدأت تغير طريقة نشرها وكلامها على صفحتها على الفيس بوك، وكذلك كتابتها في الصحف والمجلات المختلفة بعد أن طلب منها شريف أن تكون منارة تنير عقول الفتيات ليعرفن كيف يطالبن بحقوقهن دون إستسلام كما فعلت هي في بداية حياتها.

أخذت على عاتقها مسئولية توجيه وإرشاد البنات للتخطيط الصالح لمستقبلهن والأختيار الأمثل لشريك الحياة، جعلت من نفسها شمعة تشتعل لتنير درب الجيل القادم من البنات.

إن تجربتها بالزواج المبكر هي ما دفعها لإيصال فكرة أن الحياة ليست رجل وكفى وأنه لا بد قبل الإقدام على خطوة الزواج أن تفهم البنت أن الحياة الزوجية ليست عقد شراكة عمل إذا لم يتفق الطرفان يفضان العقد دون خسائر.

لا بد للفتاة أن تفتح آفاقا في سبيل الوعي بالتخطيط السليم لإختيار شريك العمر، فلكل فتاة فتى أحلام تتمنى الزواج والإرتباط به، ترسم صورته في مخيلتها كما كان لها هي فتى أحلام لكنها لم تفكر بشكل صحيح ولم تخطط بحكمة وروية، فركبت القطار من المحطة الخطأ واتجهت للوجهة الخطأ فدفعت الثمن غالياً.

ورغم قناعتها بأن التفكير فى الزواج عند اي فتاة أمر طبيعي لكن لماذا تفكر الفتاة ان ترتبط بأي شخص لمجرد أنها تريد الزواج؟

هنا مكمن الخطأ الذى قد يكلفها حياتها كلها إذا قبلت أي شخص يتقدم ليخطبها وبعدها تندم أشد الندم، إستنتجت هذا من تجربة زواجها المبكر غير المتكافئ وتركها مستقبلها بلا حكمة ولا تخطيط.

كتبت خواطرها في دفتر وتركته حبيس الأدراج، كتبت خواطر تعدت مرحلة العمر، كانت منذ سنين مضت، همست لنفسها

بحروف على ورق بات لونه مصفراً كورق ذهور ذبلت دون أن تجد من يعتني بها ويرعاها .

كانت إبتسام تحدث نفسها فتقول: ها قد أتيت ألا تسمعني كلمة باتت الروح تعشقها؟ سألتك واسأل نفسى متى تطربني بسماعها. حبيبي هل يجب أن يسمع العالم كله صراخ شوقي لتسمعنى ما تتمنى الروح أن تسمعه لتدرك أني أحتاجها منك.

جاء شريف بعد أن تخطت إبتسام عامها الأربعين، بعد أن تساقط رطب صيفها وغزا الخريف ملامحها وبريق عيونها.

يا قدراً. من أين لي القوة لأستنهض قدرتي الغافية بعد هذا العمر، جئت وقد ذوى الجسد وتباطأت الخطوات، جئت وقد بدأت بناء ما أحتاج من أسوار لأحمي كياني، جئت لتحتضن عشتار النصف ميتة، المهملة المنسية، عشتار التي أنزلها الدهر من عليائها، المترفة على مقعدها الأمامي إلى أرض مجدبة بعدما كانت سيدة الأكوان متربعة على عرشها ،جئت لتتوجها ملكة على عرش قلبك وتلبسها تاج محبتك دون لقاء.

أطلقت إبتسام لقب الملك على شريف فأخذت تناديه جلالة الملك ويناديها جلالة الملكة المتوجة على العرش، لا تدري ما هو العرش؟ هل هو عرش حبه أم عرش فِكره، كانت تقول:

- جلالة الملك أنا احبك أقولها دون كلمات، دون حروف وكان يسمعها ليرد قائلا:

- جلالة الملكة سيري على هدى قلبي المرتجف بين ضلوعي ولا تتخاذلي أمام خطوطي الحمراء ، لك مكانة فى قلبى لم يصلها أحد قبلك من الأنام. جلالة الملكة إختاري ما يناسبك فقد بلغت من العمر مبلغا يؤهلك للإعتماد على نفسك، لم تعودي صغيرة تلثغ بالراء أو طفلة تخاف الظلام.

كل يوم من أول ساعات الفجر وحتى آخر ساعات السحر كان حديثهما مستمر. عبارات تتردد في اليوم آلاف المرات، تبدأ صباحها بتحيته التي تجعل يومها كما تحب، مليئ بالأمل والسعادة وهو يخبرها أن أجمل صباح يبدأ بها...

- صباح الخيرات.
- صباح الخيرات جلالة الملك.
- نورتي.
- نورك أعز الناس.
- أخبارك.
- بخير إن كنت أنت بخير.

وهكذا يستمر الحديث بين فترة وأخرى من النهار، يكتب لها وهو في قمة إنشغاله وترد عليه في لحظتها رغم مشاغلها.

- افتقدتك.
- وأنا افتقدتك أكثر يانور عيوني.

كانت تشتاق إليه وما أصعب الشعور بالاشتياق إلى شخص وأنت تعلم أن الطريق اليه مستحيل، إلا أن حبهما كان كل يوم يكبر وبقي النداء الخفي يدعوهما ويحرك نوازع الحب والشوق في قلبيهما.

تسمع أنفاسه البعيدة تتصاعد من الحنين إلى الحديث إليها فهو يفتقدها كثيراً، تحتضن خياله لتخفف نار شوقها.

وفي أيام إجازته وعندما يأتي الليل ويحل الظلام تنتبه إلى أن الظلام سرى في أرجاء المكان سريان البرودة في الجسد العاري في الشتاء، تبحث عن حَرفه، عن إكتشاف السر فيما تشعر به من حنين قبل أن تظهر ملامح الشوق في عيونها، فلو كان للحنين والشوق صوتا لسمعه من يعيش في الجانب الآخر من الكرة الأرضية.

طوال فترة غيابه كانت إبتسام تشعر بالظمأ ظمأ جارف في بحث دائم دون رحمة كأن فعل الزمن يتراكم فوق كل شيء، كأنه يهطل على الأكتاف من تعب الروح.

تعود إبتسام لتسأل نفسها:

تراني أخطأت بحبي له؟

تراني أخطأت حين سمحت لقلبي أن يتعلق به؟

تراني أخطأت حين سمحت لعقلي أن يفكر فيه إلى هذا الحد؟

كانت إبتسام تسأل نفسها كثيرًا:

هل الحب قدر أم اختيار؟

في هذا السؤال تريد أن تقنع نفسها أن حبه قدرها وأنه رزق من رب السماء يأتي في لحظة ليس لأحد قدرة على أن يمنعه.

أدركت إبتسام أن الحب لغز فيه كل القلوب تحتار، فهو لوعة وحنين وطول انتظار، الحب روح تلاقي روح بقدر رب الأقدار، هو سلطان على القلوب والقلوب ليس لها فيه قرار.

كانت إبتسام تخشى الخيبات في حبها، فحياتها عبارة عن خيبات مستمرة إلا أنها مع شريف شعرت أنها إنسانة لها مكانة، فقد كان دوما يدفعها للأمام، يخطط معها خطوات حياتها لدرجة أنه أصبح شريك نجاحها، فكل تقدم كانت له بصمة فيه ورغم هذا كانت تأتي عليها لحظات تشعر فيها بصوت مرتعب مليئ بالغبار فهي تعرف انه يحبها وقد شغلت تفكيره لكنه لا يفصح بالكلام كل هذه السنوات.

كانت تتمنى أن تسمع منه كلمة أحبك، صاحبة القشرة الفولاذية كررت عليه أكثر من مرة أنها تحبه إلا أنه لم يقلها ولا مرة، كان يبادرها بالسؤال:

- هل تظنين أن هذه الكلمة هي دليل الحب؟

لترد عليه:

- لا لكني أحب سماعها منك وعند إلحاحها وبدل أن يقولها كان يتركها ويمضي فتسأله لماذا؟

يرد قائلًا:

- يجب أن تفهمي أنك وصلت لمكانة لم يصل أليها أحد من قبلك في حياتي، وأنك نجحت بأن تشغلي فكري وتجعلينى دوما أفتقدك، أرى مكانك خاليا قربي دائما، أنظر اليه وأقول ليتها موجودة الآن لتسمع ما تريد سماعه حتى وإن كان صمتا.

حبها الكبير له يجعلها تصدق وتؤمن بأنه يحبها دون أن يقول لها كلمة أحبك.

كانت مؤمنة بحبها له وواثقة منه فهو لا يكلم أحد غيرها ولا يسمح لأحد غيرها أن يتحدث معه على الخاص إلا هي، رأسه مليئ بالحكايات عن السفر والعمل والتخطيط للحياة معها ينسى الوقت ويعيش لحظات السعادة كأنه طفل كبير.

كان يتمنى مع نفسه وأحيانا يفصح بهذه الأمنية أن تكون إبتسام قد سافرت قبل ركوبها القطار من المحطة الخطأ، كثيرا ما ردد عليها قائلا: لماذا لم تسافري؟ لماذا تركت مستقبلك؟ ألا تعرفين أن هناك من ينتظرك في الجانب الآخر؟

كان يردد دائما في حديثه معها:

- صدق نزار...

قاصدا أن نزار صدق في بمقولته الشهيرة (من لم يتزوج عراقية فلم يتزوج أبدًا) .

إبتسام وهي تحادث شريف تتخيل نفسها ملكة، في كل مساء عند عودته من عمله تستقبله بهيئتها الملكية وفي جلستها المعتادة وهي تحادثه تنظر إلى شرفتها الغربية المطلة على بلده البعيد تقوم بإعداد الشاي العراقي بالهيل وتقدمه له قائلة:

- تفضل جلالة الملك الشاي العراقي يفتقدك.

ولسان حال الملكة يقول إن الأيام تمضي وبارق الأمل يغيب من أفق حياتها دون أن تلتقيه وتقدم له الشاي بيدها كما فعلت في لقاء سابق كان بينهما.

***

الفصل الثامن

لقاء في زمن آخر

في إحدى حواراتهما قالت له:

- شقيق الروح يجثم على قلبي الخوف.
- جلالة الملكة ما بك أنت اليوم على غير عادتك؟
- سموك افكر لما الحياة غير عادلة؟
- كيف ذاك؟ ماذا تقصدين؟
- افكر لو كان هناك عدل في الحياة لكنت معك الأن.

صمت شريف لقولها هذا وتخيل صورا تزاحمت في أحشاء الذكريات، ذكريات اللقاء الأول تمتم قائلا:

- أمنيات، امنيات فقد قضي أمر الله وحكم النصيب بذاك.
- شريف: والأن ماذا أنت فاعلة؟
- إبتسام: سأعد العدة ليكون بيننا لقاء فما قولك نور عيني إن قايضنا حبنا ليكون في زمن اخر، فمهما توارى الحلم في عيني

وأرقني الأجل مازلت ألمح في رماد العمر شيئا من الأمل، أجدها ستنبت غدا في الأفق كنجمات جديدة وأراها ستورق في ليالي حزني أيام سعيدة أمني النفس أن أراك فى غدى على المدى شمسا تضيئ ظلام أيامي حتى وإن كانت بعيدة.

- شريف: هل أقول لك شيئا؟

- إبتسام: تفضل نور عيني.

- شريف: أتعرفين أنني اشتاق لك وأفتقدك وأنك لا تفارقين خيالي، تحتلين ذاكرتي وفكري، أحاول الغوص في أعماق عقلي لأسترجع كل حرف تكتبينه، أسمع همسك وقلبي يخفق بحبك كأني لم أر غيرك في باحة هذا الكون الفسيح، سافرت كثيرا ورأيت أناس كثيرون لكني لم أجد مثلك فأنت إستثنائية التميز والصفات والتكوين.

كانت إبتسام تقرأ حروفه دون أن يكتبها وتفرح لما بين السطور قالت له:

- أحبك وأن كان ما يأتيني منك قليل، فقليلك كالصيب ينعش الروح، أحبك كلمة أهمسها بيني وبين ربي لعله بلقاءك يسعدني وبوصلك يمتعني.

كان قلبه ينبض داخل قلب إبتسام وفي عقلها سؤال يدور:

- ماذا عساي أفعل؟ قلبي يرتجف شوقا لحديثه، لهمسه لكن يا للأسف حزينة اقداري في حبه تائهة خطواتي تبحث عنه في طرقات اللا لقاء، ما أصعب أن يكون بيننا عشقا قدر له أن يجمع بيننا لقاء كخطان متوازيان لا يلتقيان أبدا اسمع صوته داخلي كثيرا كانت تهتز له أوتار قلبي .

احيانا تفكر إبتسام هل من المعقول أن أحمل له كل هذا الحب وهو لا يبادلني نفس المشاعر؟ معقول أن يكون حبي له من طرف واحد؟

ثم تعود وتتذكر كيف يهتم بها، يشعر بها رغم ما يفصلهما من بعد المسافات وفي لحظة يكتب لها:

- ماذا بك؟
- تستغرب!
- كيف عرفت؟
- شعرت بك، من ضايقك؟
- لا أحد.
- تكلمي ماذا بك، سمعت صوتك مخنوقة، ماذا بك تكلمي؟
- أتحبني؟
- ماذا؟ لم هذا السؤال؟ ألم تدركي بعد مكانتك في حياتي؟

- نعم أدرك ولكن ليطمئن قلبى.

- ماذا بك؟

- أنا أحبك.

- أعرف ذلك وأشعر به، أنـا... وصديقك، أنت تعرفين أنك صديقتي الوحيدة التي لا أتكلم إلامعها.

- أعرف لكني أناديك لتبقى في حياتي شمعة تضىء ظلام روحى.. أريدك أن تكون لي كل الناس.

- كيف ذلك وأنت لك حياتك وأسرتك وعالمك الذي تعيشين فيه؟

- نعم كما تقول لكني أدعو ربي أن تكون لي في زمن آخر وأن يجمعنا في جنته.

يدرك شريف أنها تعيش في عالم غير عالمها لكن لا مفر من ذلك، فيقول لها:

- إن شاء الله نلتقي في زمن آخر.

تضحك إبتسام لتقول له:

- اتعرف رغم أن بيننا آلاف الأميال إلا أنني كلما تحدثت معك تنهمر الأقمار لتضىء حياتى كشلال محبة، ما كان سيحدث هذا أبداً لولا أن زمن العولمة مكننا أن نكون معا. الأن نشرب الشاي معا

في مكان هادئ، أنظر فى عينيك وتنظر لي، تخاطبني بعينيك بدل حروف تكتبها، ماذا كان سيحدث لو أنني سمعت صوتك تحادثني وجها لوجه؟

تناقشني في أفكاري وأناقشك. ماذا كان سيحدث؟

***

الفصل التاسع

سجن في الروح

ذات مساء قررت إبتسام وبعد سنة من سفرها لبلد شريف، قررت ان تدخل عالم شريف، تقترب أكثر، تتعرف على أسرته.

وبطبيعتها المعهودة بأنها عندما تريد شيء تفعله وقررت السفر... التقت به، ذهبت إلى بيته، تعرفت على أمه وأخته وكل أفراد أسرته.

شعرت أنها واحدة منهم وكأنها عاشت معهم وبينهم سنين عديده، أحبوها هم أيضا بل واشعروها بذلك الحب.

جلست إبتسام مع شريف في بيته ودار بينهما حوار لم يتعد كونه حديثا بين أصدقاء مثقفين في جلسة حوارية فقد تحدثا عن الثقافة والعلم والتعليم في بلداننا العربية وكيف تحول الجيل العربي الجديد إلى جيل إتكالي فاشل يبحث عن راحته فقط.

أستمر نقاشهما حتى بزغ الفجر، وكأن شهرزاد كانت تُحدث شهريار فلما انبلج الصباح سكتا عن الكلام المباح، واصطحبها

شريف بسيارته إلى محطة القطار لتسافر إلى محافظة أخرى في مصر كان لها فيها عملا.

وفي محطة القطار شهقت إبتسام وأوشكت أن تنهمر دموعها، لم تدع أحد ينتبه أو يشعر بما تعانيه، سرق شريف نظرة إليها من بعيد لمحت في نظرته تلك نوعا من الحب والحنان قالت في نفسها:

- يا الله أخيراً ظفرت بنظرة منك أمدتني بالسعادة في لحظة الإحساس بأن دمعي سيحفر علامة على خدي من شدة ألمي لفراقك.

تمنت إبتسام لحظتها أن تحضنه وتضع رأسهاعلى صدره وفور قدوم القطار تمنت أن تفعلها وتقبله قبلة توديع المسافر، تمنت أن تفعل هذا علانية أمام الجميع لتطفىء نار حنينها إليه لكن.

طبيعة شريف أحالت دون تحقيق ما تمنت مع وصول ساعة الصفر لإنطلاق القطار لم يبق في داخلها إلا شجن ينم عن حزن يبقيها ملتاعة وعاجزة عن أي حراك.

وتساءلت لماذا لا يجد في نفسه الشجاعة ليأتي إلي ويأخذني بين أحضانه؟

ساعتها تمنت لو يتعطل القطار وتتفكك قضبانه ويوقف دون حراك، لكنها أفاقت من خيالها على واقع أن الناس بدأت تركض بسرعة لتركب المقصورات، مدت يدها لتودعه لتبقى حرارة يده مستعرة في قلبها قبل الفراق، إبتعدت رغما عنها وهي تسير وتلتفت نحوه لكن الزحام دفعها من ظهرها نحو البعيد.

يا إلهي هناك كلمة حب لم يقلها ولمسة مرتعشة لم تشعر بها وقبلة تنتظرها، ركبت إبتسام القطار جلست قرب النافذة تنظر وفي لحظة الانطلاق أوشك شريف أن يصرخ لكى يتوقف القطار لتنزل وإن كان لا بد من سفرها فلتنتظر قطارا آخر أقل ازدحاما، لكنه لم يعد يرى وجهها.

فقط يسمع صفير القطار، هي تنظر له وهو متسمر في مكانه، ويصغر شيئا فشيئا حتى يتلاشى في زحمة الأمنيات، كان يوما شتويا عاد المطر للهطول وواصل القطار التحرك بدأت العربات تمر أمامها بسرعة أكثر فأكثر.

بقي واقفا فترة طويلة دون أن يشعر وفي يده هاتفه المحمول كتب لها عودي فمكانك هنا وليس هناك هيا عودي عودي...

- لم استسلمت وركبت القطار بسرعة؟ ألم تدركى أن مكانك هنا وهنا عائلتك؟ لم؟ لم؟ لم؟

انتبه بعد أن تبللت ملابسه دون أن يشعر بأن المطر ازداد، كان لا يريد أن يرى أحد دموعه التي اختلطت مع قطرات المطر.

رغم عشقها للشتاء والمطر إلا أنها رأت أن المطر يحمل معالم باهته وكأن الظلام حل وبدأت الأضواء ذائبة في روحها المعتمة بكل رقتها...

كيف تتحمل كل هذا الإحساس بالغربة والإبتعاد وأن تفتقده؟ لست أدري هل من الممكن أن يشيب الحلم يوما أم تراه يبقى طوال العمر صبيا؟ يا ترى لو شاب حلمي أو مات هل يبقى حبه؟

تساؤلات تجول في خاطر إبتسام تبحث لها عن جواب، حلم كل امرأة عربية ان تجد من يفهمها، من يحترم عقلها قبل أي شيء.

هكذا كانت حياة إبتسام فهي لم تتخيل أن تجد من يفهمها يقدر عقلها وينبهر به سنوات قبل أن يراها، لم يطلب منها أن يرى صورتها ليتعرف عليها أبدا قد يكون هذا شيء من الخيال في زمن العلاقات السطحية العابرة التي تبدأ بصباح الخير وإعجاب بما تنشر المرأة وتتطور لتنتهي إما بإبتزاز لها أو عمل حظر بينهما.

كانت علاقة إبتسام وشريف أشرف وأعمق من ذلك، كان شريف برقي أخلاقه واحترامه لذاته يرى إبتسام أرقى وأسمى من أن تهان بعلاقة بعيدة عن تربيتها.

إزداد حب إبتسام لشريف وبات روحها التي تحيا بها رغم أنها كانت تحب أن يصارحها بكلمات تغزو طبيعة المرأة العربية.

كان شريف ينظر لها كإنسانة تطابق عقله مع عقلها فعاش معها تجربة إندماج عقول ناضجة كل منهما يحترم حياة الأخر.

أدمنت إبتسام فكرة وجود أب في حياتها على الرغم من زواجها المبكر لكن الصلة بقيت وطيدة لم تخفت يوما شخصيته، حبه، إحترامه لها جعلت تلك العلاقة تستمر فكانت ترى شريف امتدادا لوالدها بعد وفاته.

ما زالت طفلة كثيرا ما يداعبها شريف من خلال الطفلة التي بداخلها تنتظر لمسة أو حنان أو نظرة عطف إرتبطت به جدا لدرجة أنها كانت تفكر مع نفسها وتتساءل هل يعقل أن أكون غير طبيعية بتعلقي بوالدي؟

أيام وأيام يزورها والدها في المنام يقف خلفه شريف فتمد يدها لتمر من خلال روح والدها إلى شريف أيقنت من هذه الرؤيا أنها

بعد فقدها والدها وجدت سندا لها يملأ فراغ والدها وتحترمه وتجله فهي كما كانت تحترم وتجل والدها.

احترمت شريف وأحبته كثيراً لأنه إمتداد لسندها الذي لم يعوضها عنه شريك حياتها.

إبتسام إنسانة رهيفة الحس كرهت من اغتصب انسانيتها بعد أن كانت صاحبة المقعد الأمامي المتوجة على قلب أبيها المحبوبة التي لا يرفض لها طلب.

فهي لم تعش حياة المراهقة تحولت فجأة من طفلة كبرت وزادت جمالا تزوجت حتى دون فترة خطوبة جميلة تعيشها لتتذكرها.

زواجها المبكر جعل منها حالة خاصة بكرهها للرجال ونظرتها المشمئزة منهم جعلها ترتدي قشرة فولاذ لتحمي نفسها ففي داخلها بركان مشاعر مدفون.

شريف خبير العقول ومهندس الأفكار أدرك أنه أمام إنسانة عاشت تجربة قاسية لهذا قرر إعادة هيكلة شخصيتها لتعيش إنسانيتها المفقودة مرة أخرى.

ساعدها لتسافر وتتخلص من شبح الخوف من المجهول. ساعدها لتدرس لتكون سيدة مجتمع ناجحة يشار إلها بالبنان.

تأتي لحظات على إبتسام تظن أن شريف لا يحبها رغم كل ما يفعله من أجلها لأنها تنظر للحب تعبيراً عن المشاعر بالقول وبالفعل أيضاً.

- إبتسام: هل حبي لك من طرف واحد؟

- شريف: ماذا بك؟ زاوية رؤيتك ضيقة جداً علاقتنا أرقى وأسمى أنواع الحب. انه الرقي وليس الحب التقليدي الذي يتبعه تبعات قد لا تنسجم مع طبيعة تفكيرنا وتربيتنا وقربنا من الله، لا بد أن تفهمي أن ما بيننا علاقة تسمو وتترفع عن اللمم لتصل لإندماج عقول وهذا أجمل بكثير.

- إبتسام: الحب التقليدي من وجهة نظرى أجمل مع الإحتفاظ بالحدود واحترامها.

- شريف: هذا رأيك؟

- إبتسام: الحب أجمل شيء في الوجود مع وضع حدود بعيداً عن الشهوات والنزوات.

- شريف: أنت رومانسية جداً وأنا أحترم رأيك هذا.

- إبتسام: في زحام الحياة وتعقيداتها نحتاج لعناق بلا ايدي' نحتاج إلى ورود بدون مناسبة.

- شريف: الحب في الله أجمل ما في الحياة، الحب التزام، أمانة، إرتقاء في الأفكار، الشعور بتألف الأرواح، الحب عدم الإستغلال، الحب يدفع إلى طاعة الله.

أبحث عن نفسي أم أبحث عن جنوني، شيء في الخيال يحادثني، ينتظرني لأكتبه، شيء ما يعيد صياغتي ويغزوني في قعر أنوثتي المخفية، يأتيني صوته من خلف حطام السنين، تتبعثر أحلامي أمامي لحظات صمتي فباتت تحاصرني أينما ذهبت.

***

الفصل العاشر

البحث عن ماذا

جاءتني اليوم صديقتي التي تعتبر نفسها متحررة، فقد كانت تقول دائما أنها مختلفة، فهي لا تتفق كثيراً مع من حولها.

- هدى: لقد تعبت.
- إبتسام: ما الذي أتعبك؟
- هدى: البحث.
- إبتسام: البحث عن ماذا؟
- هدى: عن الحقيقة.
- إبتسام: حقيقة ماذا؟

أجابت هدى وقد ارتسمت على وجهها السخرية حقيقة العدالة في هذه الدنيا، حقيقة الحياة التي نعيشها، أتعجب من أن الكل يقاتل ويصارع من أجل أن يعيش.

- إبتسام: ماذا بك؟ كيف تفكرين؟

- هدى: أستغرب من هذه الحياة، فالكل يعيشون وفي ذات الوقت هم لا يعيشون حقا.

- إبتسام: اليوم أنت مختلفة فعلاً، ماذا حصل لك لتفكري هكذا؟ افهم من كلامك أنك تقصدين أن الحياة فيها ما يجعل الناس يحبون العيش فيها وفيها أيضا ما يجعلهم لا يريدون العيش فيها؟

- هدى: نعم أقصد ذلك فعلاً، لماذا نعيش ونحن محرمون ممن نحب أو أن من نحبهم لا يقدرون حبنا لهم؟

- إبتسام: ماذا حصل؟

- هدى: تعرفين حبي لمصطفى وكم ضحيت من أجله؟

- إبتسام: نعم أعرف ماذا فعل لتقولي ذلك؟

- هدى: إنه يعيش حياته على راحته ويرفض أن أعيش أنا حياتي كما أريد ويحاسبني على كل صغيرة وكبيرة وكأنه زوجي أو من بقية أفراد أسرتي.

- إبتسام: أنت من سمحت له ان يفعل ذلك.

- هدى: لأني أحبه.

- إبتسام: الحب ليس انتقاص من الحبيب وليس سيطرة دون إدراك ما يجب أن يكون، الحب ليس تنازلاً عن الكرامة، قلت لك

حافظي على حبك له دون أن تسمحي له أن يمس كرامتك أو يتدخل في أدق تفاصيل حياتك.

- هدى: نعم قلت ذلك لكني للأسف لم أسمع نصيحتك وها هو بعد أن تأكد من حبي له بدأ يفرض علي ما لا اطيقه.

- إبتسام: صديقتي ألا تتعظى بعد تجربتك الأولى التي فشلت فيها ويكون عندك الإدراك والوعي لما ستقومين به وكيف يجب أن تعيشي حياتك.

- هدى: نعم لكني أحببته.

- إبتسام: وهل الحب يجعلك بلا شخصية؟ هل الحب يجعلك مسخاً لشخص ربما لا يبادلك الحب كما كنت تتمنين؟

- هدى: هذا ما حصل فعلا، ماذا أفعل الان؟

كانت هدى تعاني من تسلط مصطفى عليها على الرغم من أن علاقتهما لم تكن رسمية، بدأ يتدخل في حياتها، يحاسبها على كل صغيرة وكبيرة، لا تخرجي، لا تتكلمي مع أحد، حتى وصل الأمر ان يتدخل بما تنشره على صفحتها على الفيس بوك ويقيم الدنيا ولا يقعدها إن علق لها أحد على منشور لها.

- إبتسام: صديقتي العزيزة، أن تبحثي عن ذاتك وتدركي قيمة وجودك هذا يحتاج منك كثيراً من الإدراك، لتصلي هذه المرحلة

تريثي لا تتخذي قراراً، جربتي تجربة فى حياتك مرة وفشلت فمن قال أن مصطفى هو من سيعيد حياتك، من يسعدك، من يساندك، تريثي قد يأتيك من يغير كل أفكارك وها أنا امامك مثال. أنظري لعلاقتي مع شريف كيف هي، أنظري كيف أنها علاقة مبنية على التقدير والاحترام، هناك حدود بيننا لا يجب تجاوزها لنحافظ على الترابط بيننا، قد يأتيك من يغير حياتك لتأخذي مكانك الصحيح بالحب، بالأمل بأن ما وراء الأسوار أجمل.

- هدى: واين أجد مثل هذا الحب؟

- إبتسام: إنتظري، فأنت موظفة ولن تحتاجي لأحد من الجانب المادي، لكن أنتظري من يجعل المستقبل أروع.

- هدى: لا أمل فنحن نعيش في مجتمع ينظر للمرأة على أنها عورة كل شيء فيها ومنهاعيب وحرام.

- إبتسام: صديقتي إبحثي عن روحك لأبعد من المحطة الأقرب، لا بد أنه في مكان أبعد مما تظنين، قالها لي شريف يوما ما فى أحدى الحوارت بيننا: أنت لست شجرة، أبحثي عن حياتك أبعد من هذا المكان فلكل روح روح تشبهها فربما نصفك الأخر هناك في ذلك المكان، لا تركبي القطار الخطأ فتذهبي للمحطة الخطأ مرة أخرى فالبقاء على رصيف الإنتظار أجدى وأنفع.

الفصل الحادي عشر

السفر لأرض الحبيب

أنا في مصر الآن البلد الذي لا ينام، فى الأسكندرية فكرت بعد الفجر أن أنزل وأمشي على البحر، والبحر في الأسكندرية يكفي أن تنظر إليه حتى تغرق فيه وإن كنت على الشاطئ بعيدا عن مياهه العميقة عند الوقوف على الشاطئ تستنشق أنقى هواء وتشعر بنسيم عليل يفتح الصدر.

يا الله ما أجمل هذه المدينة، وما أجمل هذا البحر فمن يكون فيها يشعر أنها هى أيضا تشعر به ويبدأ بحرها بالتخفيف عما في نفسه من ضيق مع كل موجة ترتفع وتثور تثور معها ثورة داخل النفس تصرخ بأن الحياة تحديات ولا يجوز الوقوف عندها طويلاً وإلا غرقت نفسك فيها مع كل موجة تعلو ثم ترتطم بصخور الشاطئ.

نظرت إبتسام إلى هذه اللوحة الإلهية البديعة التي لم ترها في حياتها رغم خوفها الشديد من البحر وأمواجه شدها منظر طيور النورس البيضاء القوية التي تطير عاليا في السماء ثم تهبط على سطح البحر وكأنها لوحة لراقصة باليه بتناغم الحركات.

ركبت اليخت من بحري وما زالت النوارس تطير وتهبط على سطح البحر لتخرج حاملة رزقها من السمك وبمحاولة بعد أخرى.

هذا المنظر جعل إبتسام تربطه بحياتها ومعاناتها، إنه طائر قوي ارتبط بحياة البحر والسماء وحياتها التي ارتبطت بما عانته من ظلم من لحظة إستسلامها وتخليها عن مستقبلها حتى لحظة سعيها إلى الحرية وما لاقته من أجل حريتها.

ومع تأثير النسيم العليل وموج البحر في اليخت وجدت إبتسام فجأة شريط حياتها يسير أمامها وكأنه يذكرها كيف كانت وكيف أصبحت.

عادت إبتسام لتتذكر حديث شريف الأول واستفزازه لها بقوله كيف استسلمت هل أنت شجرة؟

مع رؤيتها لطائر النورس محلقا فوق البحر أدركت أن كلام شريف عين الصواب ورغم حب الإنسان للإستقرار إلا أن حضارة الإنسان كان أساسها الهجرة من مكان لمكان آخر.

تأملت قصص الأنبياء ووجدت أن الله سبحانه وتعالى فرض على معظمهم (عليهم السلام) الهجرة بمن معهم إلى بلاد أخرى إما هربا من حاكم جائر ومن بطشه لهم او لأمور توعوية ومهما يكون الإنسان متعلقا بوطنه إلا أن الله سبحانه وتعالى أنعم عليه بنعمة

النسيان حتى وإن بقيت الذكريات في مخيلته لكن سرعان ما تتلاشى اذا نجح في بناء مستقبله ووجد ذاته.

كيف استسلمت إبتسام ولم تدافع عن مستقبلها؟ كيف ركبت القطار مسرعة لتترك شريف في محطة حياتها التي من المفترض أن تكون فيها؟

في هذه السفرة كانت إبتسام تعيش حالة من الوحدة والتلاحق مع البحر، شريف لم يتصل بها وهي لم تتمكن من الإتصال به رغم علمه أنها موجودة في بلده وأنها جاءت أصلا من أجله ولأجله هو فقط.

على مدى أيام سفرتها والتي استأجرت شقة على البحر ظلت كل يوم تنزل وحدها وتجلس تعاتب شريف وترسل عتابها مع موج البحر لكنه سرعان ما كان يذهب عتابها ادراج الريح، ظلت هكذا حتى تيقنت أنه لا أمل في حبها فكتبت قائلة:

شيعت حبك لمثواه الأخير

ما عاد هناك جدوى من قلب أسير

أغدقت عليك حباً أظنه كثير

ومنحتك قلبا عاشقا أرديته قتيل

لا ذنب عليك فقد جاء حبك في زمن عسير

ومهما حصل يبقى الشوق في القلب سعير

وفي لحظات شوقي إليك أرسم صورتك على ورقتي

واكتب تحتها ما في داخلي

وعند الإنتهاء أمحو كل كلماتي وأغلق دفتري لعلي بذلك اقلل حاجتي إليك واقنع نفسي أنني شيعت حبك لمثواه الأخير.

عادت إبتسام إلى القاهرة لتسافر من هناك إلى بلدها، عادت وفي داخلها حسرة على حبها، في لحظات الانتظار في صالة المطار رن هاتفها...

- إبتسام: ألو
- شريف: أين أنت؟
- إبتسام: عجبا بعد أسبوعين في بلدك تسأل أين أنت؟
- شريف: سألتك أين أنت الآن أرجوك أجيبي؟
- ابتسام: أنا فى المطار لأعود لبلدي.
- شريف: إنتظري لا ترحلي.
- إبتسام: لم يعد هناك وقت، المكان ليس مكاني ولا الزمان أيضا زمانى.
- شريف: سألتك أين أنت الآن؟

- ابتسام: أدور في فلك روحي علني أجد المفر في عتمة الدجى وبرد الشتاء، تسافر روحي فقد وجدت ما حولها سراب.

- شريف: لا تذهبي إن مكانك هنا؟

- إبتسام: أمنيات نعيشها، سكنت قرب البحر اياما لم تأت، انتظرتك، رأيتك فيه، سمعت صوتك مع كل موجة ترتفع لتبلل ثوبي، ظننتك تلمس خدي، كأنك قلت لي لا تبتئسي حبك في قلبي، عرفت أن للبحر سحر أصبحت أعشقه، أهتم به حد الوله، قصصت له حكايتي، عاتبته لأنه لم يحملك لي، شكوت له وسافرت معه إلى المدى اللامنتهي لكنك لم تأتى، لماذا تركتني؟ لماذا لم تسأل عني طيلة فترة وجودي هنا؟

- شريف: من قال أني تركتك وحيدة؟

- إبتسام: لم تسأل عني؟

- شريف: تركتك تكتشفي حياتك وأنت بعيدة عن وطنك لتزدادي قوة وخبرة وحكمة.

- إبتسام: لكني شعرت أني وحيدة، ولم أستمتع طيلة فترة الرحلة.

- شريف: لابد أن تواجهي الحياة بنجاح وتتقدمي لتجدي الحياة التي تستحقينها.

- إبتسام: أعرف أنك تريدني أن أتعلم وأفهم الحياة وأتعلم كيف أتصرف فيها، لكن كان عليك أن لا تتركني وحدي دون أن تطمئن علي وأنا كتبت لك كثيراً دون رد منك حتى وأنا أخبرك ان الطائرة تعطلت وسوف تتأخر الرحلة وبقيت في المطار إثنتا عشرة ساعة بعد الموعد.

- شريف: عزيزتي إنها تجربة وكان لابد أن تعيشيها.

- إبتسام: أنت حتى لم تسألني ماذا فعلت؟

- شريف: لأني أعرف ماذا ستفعلين، فأنا واثق من عقلك وطريقة تفكيرك.

طأطأت إبتسام رأسها وردت عليه:

- لا أعرف ماذا أقول لكنه كان أصعب موقف يمر على في حياتي.

- شريف: رائع وهذا هو ما أردت أن تعيشيه إنها تجربة جديرة بأن تصقل شخصيتك.

حانت ساعة الإقلاع... سمع شريف النداء في المطار:

- أنت في المطار؟

- إبتسام: حان موعد الوداع وداعا عزيزي.

- شريف: بل إلى اللقاء في اقرب وقت قد يكون اقرب مما تتخيلي.

كانت تجربة سفرها لبلد شريف وعدم سؤاله عنها لها أثر كبير بقي معها كلما تذكرته شعرت بمرارة فقد كان الكل يسألها، ماذا بك؟ لم نعهدك هكذا ماذا جرى؟ فقد كانوا يرونها تعيش في عالم وحدها وكأنها تائهة في ذلك العالم، كان البحر صديقها تركت كل من حولها حتى أقرب صديقة لها لتعيش في وحدتها مع بحرها .

- إبتسام: الحمد لله مرت تلك المرحلة على خير.

- شريف: لا تقنعي نفسك بأنها تجربة سيئة بل هي تجربة مفيدة جدا لك.

- إبتسام: كانت تجربة سيئة جدا بالنسبة لي لم أستطع أن أبعدها عن تفكيري أو أنساها فمرارتها مازالت في قلبي. أن أكتب لك لأقول لك ماذا حدث معي في المطار وأنت ترى رسائلي وتتجاهلها ولم ترد حتى بكلمة واحدة، لكن الحمد لله تجربة ومرت.

أيعقل أن يكون كل شيء ميت فينا ما عدا قلوبنا؟ نعم كل شيء ميت فينا إلا القلب فهو مازال ينبض بالحياة على الرغم من ظلمها لنا.

كانت الإنارة تنطفئ داخل إبتسام لأيام دون سبب ثم تضيئ فجأة من دون تدخل منها، كان لها إرادتها الخاصة، كانت تعرف ان الأمر دائما ينتهي بالذهاب للحديث مع شريف الذي يحاورها في كل شيء إلا حبه لها.

كانت تنتظر الفرصة لتبوح بمكنون قلبها إن كان بمزحة أو بجرأة، لكن كم كان عليها أن تنتظر وكم كان عليها أن تشعل ضوء لينتبه إلى حبها وإلى أي مدى تستطيع الأنتظار وقطار العمر يمضي دون انتظار وبلارحمة.

كانت إبتسام إضافة لحبها الموجع الغريب نوعا ما تحمل في داخلها ألم بلدها الذي جعلها تظن أن الأحياء اختفوا منذ زمن بعيد، فهم لم يعودوا قادرين على فعل ما يفعله الأحياء من بناء الوطن أو زراعته او فتح مصنع للتخلص من البطالة التي يبست أطراف الشباب وجعلتهم يعيشون في تيه مع فساد المسيطرين على السلطة الذين لا يشبعون من نهب خيرات هذا البلد الغني وشعبه الفقير، فما الغرابة أن تتيبس أطرافهم ويسلب منهم رحيق الحياة حين يفارقهم المستقبل؟

على الأقل هناك سبب منطقي فنحن جميعا متجمدون وموتى من دون أي سبب ظاهر.

ليس الشباب فقط هم المتجمدة أو المتيبسة أطرافهم ولا أنا وحدي جامدة، فهذا الشعب الذي يطالب بأبسط حقوقه ولا أحد يستجيب، الكل يتحدث عن فساد المؤسسات والسياسيين لكن يبقى الحال على ما هو عليه فمتى يكون لنا وقفة من أجل بلدنا؟

كانت إبتسام ترى حياتها قيثارة لم تجد من يجيد العزف عليها، عاشت سنين مركونة بين ثنايا الزمن تنتظر عازف يحتضنها بين

يديه لتبدأ همسات الإبداع من نوتة تخطها أنامله، وجود شريف في حياتها جعلها تسأله وقد رأت فيه ذلك العازف الذي كانت تتمناه فكانت تناجيه قائلة:

أيها العازف ما الذي اخرك حتى ذابت أوتاري في غفلة الزمان ؟

أيها العازف جئت في وقت ليس من حقك فيه أن تلمس أوتاري ونبض قلبي يستصرخ حضورك رغم أنك لست لي ...

يا أنت يا أيها القريب البعيد كيف السبيل ؟

يا حلما يسكنني منذ بدأت أرسم الفارس في خيالي .

أصبحت إبتسام تسافر كثيرًا تشارك في مهرجان هنا أو مؤتمر هناك، نجحت في حياتها داخل بيتها وخارجه بفضل دعم وتوجيه شريف ورغبتها في أن تكون متميزة، كان صوت شريف صدى صوت ينبع من داخلها يوجهها ويعلمها، يحفزها ان تكون الأفضل فهي الأفضل على الإطلاق كما يقول:

سافرت كثيرا للشرق والغرب والتقيت بنساء كثر لكني لم أرى مثلك أبدا، ذكاء خارق، عقل لا يقارن، لا تجعلي لحلمك حدود.

سابقي الريح لتصلي فأنت فارسة في زمن ليس للفرسان وجود فيه، كانت كلماته تشحذ همتها وتجعلها أقوى وأقوى من كل الظروف.

كانت تراود إبتسام تساؤلات عن حبها لشريف وعمق ذلك الحب كيف حدث هذا؟ تراه كيف حدث ومتى؟ فيما مضى عقدت هدنة مع الحب أن لا يكون بيننا صلح، أن لا يكون هناك من يمتلك الروح والقلب ،

كيف اخترقت جدار القلب؟

كيف استطعت أن تمتلك كل هذا الشعور فيه؟

كيف استطعت أن تصعد قمة قلبي وتتربع عليها؟

تسللت إلى عقلي قبل قلبي بكل عذوبة كنسيم الربيع وهي تهب .

وفي اللحظات عندما يسكن الرد اوصالي أعود وأسرق خيالك من أحداقى لتدفئني.

ومن لهيب الشوق تطفئني لحظتها أعلن أني قد خرقت الهدنة وأحببتك أنت.

أصبحت إبتسام تكتب الشعر والمقالة عن كل ما يجول في خاطرها تكتب للحبيب، للوطن، لبنات بلدها.

تناجي الحبيب بحروف وتواسي الوطن بحروف ودموع، تشد عزم بنات بلدها ليأخذن مكانهن في الحياة ليكون لهن دور في بناء الوطن تكتب وتكتب عن العلم والتعليم في حياة كل إنسان خصوصا المرأة، فهي أساس بناء المجتمع وأساس بناء الوطن.

فحواء منذ الأزل هي من حافظت على استمرار الجنس البشرى فهي الحاضنة والوعاء وهي الراعية المعطاء أم أو أخت زوجة كانت أم بنت .

عراقية عن مغوار تبحث أم بات هذا حلم من الصعب أن يتحقق، لا تجعلي نفسك على الهوان تتعود، كونى للعلم والفخر نبراس، عودي نفسك أن تكوني قائدة زمانك ان شح الزمان بقيادة ، فأنت للرافدين منبع.

كان شريف وابتسام وجهان لعملة واحدة بعد أن تطابق العقل والفكر بعد أن نجحت إبتسام بامتياز في بناء تلك العلاقة بالتغيير الذي حصل في حياتها، فكأن إنصهار عقليهما في بوتقة واحدة أعطت للحياة سبيكة من نوع آخر بعلاقة لا يمكن أن تتكرر فقد أحترم كلاهما حياة الآخر فجمعت بينهما صداقة أقوى من أي حب، تلك العلاقة اثبتت أن هناك نوعًا آخر من الحب، نوع أساسه أن يعشق عقل آخر يمنحه نوعًا من النشوة وصلت بأن يشعر أحدهما بالآخر كشعور الأم بأولادها.

فهناك رابط قوي بينهما كحبل سري، فلو تعب أحدهما يتأثر الآخر بل يمرض معه، تخطت إبتسام كل الحواجز التي تفصلهما حتى وإن كانت ملايين الأميال.

***

طارت إبتسام إلى بلد شريف عندما علمت أنه تعرض لحادث... فعلت ذلك لمجرد أنها تريد أن تطمئن عليه.

كسرت كل حواجز المعقول لأنها فقدت الإتصال به عبر الإنترنت فكان لوصولها ووجودها قربه وحديثها معه بلسم خفف من جراحه.

علاقة ابتسام وشريف كأنها تطبيق لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (الأرواح جنود مجندة ما تشابه منها أتلف وما تنافر منها اختلف)

ويبقى ما بينهما أجمل.

الكاتبة في سطور

* سمية أحمد ناصر- شهرتها سمية الناصر.
* كاتبة عراقية ولدت في بغداد.
* عملت في المجال التربوي، لها نشاطات ثقافية وإنسانية متعددة.
* عضو مشارك في نقابة الصحفيين العراقيين.
* عملت في منظمات المجتمع المدني وتسلمت رئاسة فرع مدرسة النهضة العربية فرع العراق عام 2016 ، مقرها جمهورية مصر العربية.
* شاركت في مهرجان الشعر العربي في مصر على هامش فعاليات معرض الكتاب الدولي في القاهرة.
* عملت في مؤسسة الشبكة للثقافة والإعلام داخل العراق وشاركت بعدة نشاطات ثقافية وإنسانية.
* كرمت بدرع التميز من مؤسسة الشبكة للثقافة والفنون والاعلام على مدى ثلاثة اعوام متتالية ثم اختيرت رئيس هيئة الحوار الثقافي فرع العراق ومقرها في لبنان.

* شاركت في مهرجان (أسبوع في حب مصر) الذي أقيم في جامعة المنيا بصعيد مصر وتم تكريمها بدرع الإبداع من عميد جامعة المنيا.

* في عام ٢٠١٧ أقامت على نفقتها الخاصة مهرجان الشعر العربي لهيئة الحوار الثقافي فرع في العراق والذي امتد لثلاثة أيام يوم في بغداد ويومين في محافظة بابل شاركت فيه فروع الهيئة في كل من لبنان، مصر، الأردن، سوريا، تونس.

* في ذات العام شاركت في مهرجان الشعر العربي في لبنان والذي أقيم في عدة محافظات لبنانية، بعلبك، طرابلس، ترشيش النبطية في جنوب لبنان.

* في عام ٢٠١٨ رشحها واختارها الدكتور هانى السعداوى رئيس إكاديمية الزهراء ومقرها بجمهورية مصر العربية- فرع العراق- وشاركت في مهرجان الشعر العربي الأول للإكاديمية في الأسكندرية .

* في عام ٢٠١٩ شاركت في مهرجان ساكب الدولي بنسخته الثالثة في الأردن وتم تكريمها بدرع الإبداع من اللجنة المنظمة للمهرجان .

*تم تكليف الكاتبة بتمثيل المنظمة العالمية للإبداع من أجل السلام فرع بغداد .

* قامت الكاتبة بتأسيس وتسجيل مؤسسة الباسقة للثقافة والفنون والتنمية وهي إحدى المنظمات غير الحكومية مسجلة في مجلس الوزراء ووزارة الثقافة للكاتبة عدد من المقالات نشرت في الجرائد والمجلات المحلية والعربية الورقية والإلكترونية تحت عنوان حديث الأربعاء

* للكاتبة ديوان بعنوان (حديث الروح) .